10

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: وقولوا للناس حسنًا: كيف يبني القرآن علاقتك بالناس؟
رقم الكتاب في السلسلة: العاشر.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/okoloa-llnas-hsna
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.

إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لموح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
راجع كتبَ السلسلة وحكَّمها مجموعةٌ من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًا جمًا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة** — هذا الكتاب
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

يتجه هذا الكتاب إلى مساحة لا يكاد يخرج منها يوم من حياة الإنسان: علاقته بالناس. فالعبد لا يلقى الناس في مقام واحد؛ يلقى قريبًا يحبه، وضعيفًا يملك عليه قدرة، وقويًا يخشاه، ومن أحسن إليه، ومن آذاه، ومن له عنده حق، ومن يخالفه، ومن تقوم معه عداوة، ومن يتغير بعد ذنب، وقد يجد نفسه يومًا بين اثنين يحتاجان إلى إصلاح. وفي كل صورة يتغير شيء من العلاقة، ويعود السؤال نفسه بصورة جديدة: كيف أبقى عبدًا لله وأنا مع هذا الإنسان؟

وليس الناس في هذه الرحلة كلهم مشكلات تحتاج إلى حل، ولا مقامات شاقة يُختبر فيها ضبط النفس. فيهم أيضًا من جعله الله سكنًا ومودةً، ورحمًا تُوصل، وأخًا يُحب له الخير، وصاحبًا يؤنس الطريق، وإنسانًا يفتح لك باب معروف كما تفتح له. **فمن هداية الوحي أن تعرف كيف تتقي الله في الناس، ومن هدايته أيضًا أن تعرف نعمة الله في الناس.**

ولا يريد الكتاب أن يجعل حسن العلاقة سلوكًا واحدًا اسمه اللين، ولا أن يجعل الثبات صورة واحدة اسمها الشدة. فالقرآن يفرق بين المقامات؛ قد يأمر بالبر، أو المعروف، أو العدل، أو الوفاء، أو المطالبة، أو العفو، أو الدفع، أو الكف، ويجعل لكل مقام حقه. **لكن تغيّر المقام لا يعني تغيّر أصل الخُلُق الحسن.** قد تتغير صورة ما تفعله، ولا يصير الظلم عدلًا، ولا الخيانة وفاءً، ولا الفحش حسنًا، ولا الإذلال حقًّا لأن المقام اشتد. فالخلق الحسن أوسع من اللين؛ يدخل فيه الصدق والعدل والوفاء والرحمة وضبط اللسان وأداء الحقوق، ويصحب العبد وهو يلين كما يصحبه وهو يحزم، وهو يعفو كما يصحبه وهو يطالب بحقه. والذي لا يتغير فوق ذلك كله هو مصدر التكليف. الناس قد يغيّرون المقام بما يفعلون، وقد يثبت لك بسبب فعلهم حق لم يكن لك، أو يسقط وصف ويقوم وصف آخر؛ لكنهم لا يصيرون هم الذين يكتبون لك ما تكون. ومن هنا يحاول الكتاب أن ينقل القارئ من رد الفعل إلى العبودية، لا بإلغاء شعوره أو حقه أو قوته، بل بوضعها كلها تحت ميزان الوحي. ولا يكتفي بالسؤال: ماذا يجب عليك نحو الآخر؟ بل يسأل أيضًا: هل رأيت الإنسان نفسه، أم اختصرته في آخر فعل أو وصف قام به؟

ولهذا يبدأ الطريق قبل الخصومة، من الكلمة التي حمل الكتاب اسمها: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ ثم يمضي في القرب والقوة والأذى والحقوق والاختلاف والعداوة والتوبة والإصلاح، لا ليجمع أحكام العلاقات في موسوعة، بل ليبني في القلب ميزانًا يرجع إليه صاحبه حين تتبدل الوجوه والمقامات. والغاية ليست أن يخرج القارئ ألين دائمًا، ولا أشد دائمًا، بل أصدق عبودية: يعرف متى يحسن، ومتى يقول لا، ومتى يطالب، ومتى يعفو، ومتى يدفع، ومتى يكف، ومتى يتغير حكمه لأن الحال تغيرت، ومتى يكتشف

أن الذي يحتاج إلى التوبة هذه المرة هو نفسه. فإذا صار الله حاضرًا في هذه المساحة من الحياة، لم تعد العلاقة بالناس ملفًا مجاورًا للعبادة؛ صارت من مواضعها الكبرى.

ولا يقاس أثر هذه الرحلة بأن يعرف القارئ أسماء المقامات وحدها، بل بما تصنعه في حياته. أن يعود إلى والديه أبرَّ وأخفض جناحًا، وإلى رحمه أوصل، وإلى أهله أحسن عشرة، وإلى الناس أحفظ لسانًا وأبذل معروفًا، وإلى الحقوق أشد أمانة، وإلى الحق أقدر على إقامته ولو خالف عاطفته أو مصلحة من يحب، وإلى القريب والبعيد أعدل، وإلى من ائتلف قلبه بهم أكثر شكرًا لله على نعمتهم. فإذا لم ينزل الميزان من الفكرة إلى هذه الحياة، بقي علمًا عن العلاقات ولم يصر هدايةً فيها.

محتويات الكتاب

بينك وبين الناس... وبينك وبين الله..... 1
من السلامة إلى الخير..... 8
حين يكون الناس أقرب ما يكونون 17
حين تختل موازين القوة 23
حين يؤذيك الناس 31
حين يكون بينكم حق — ماذا تملك وماذا لا تملك؟.....38
حين تخالفهم... ولا تعاديهم 45
حين تقوم العداوة أو الحرب أو الخطر 52
حين تتغير الحال... وحين تحتاج أنت أن تتغير 60
من صلاح العلاقة إلى إصلاح الناس 65

بينك وبين الناس... وبينك وبين الله

من أكثر الأوهام التي تتسلل إلى التدين أن يظن الإنسان أن له حياتين: حياةً بينه وبين الله، فيها الصلاة والصيام والقرآن والدعاء، وحياةً أخرى بينه وبين الناس، فيها طبعه وغضبه وحبه وخصوماته وحقوقه ومصالحه. كأن العبودية تبدأ إذا وقف بين يدي الله، ثم تخف إذا وقف أمام إنسان.

لكن القرآن يهدم هذا الفصل من أصله. قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

تبدأ الآية من أعلى مقام: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ثم تمضي في أمر الله نفسه إلى الوالدين والقرابة واليتيم والمسكين والجار والصاحب وابن السبيل ومن صار تحت يد الإنسان. لا تضع التوحيد في جهة ومعاملة الناس في جهة أخرى، بل تجعل الإحسان إلى الخلق آتيًا في السياق نفسه الذي بدأ بعبادة الخالق.

فالله الذي تعبده في سجودك هو الذي يأمرك كيف تكون مع والديك وجارك والضعيف الذي أمامك والإنسان الذي صار في دائرة قدرتك. والعبودية لا تنتهي عند باب الناس؛ بل تدخل معك إليهم.

الله بينك وبينهم

وتفتح سورة النساء نفسها بهذا المعنى قبل أن تتشعب أحكامها. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

أصلك وأصل الناس واحد، وربك وربهم واحد، ثم تأتي الكلمة التي ينبغي أن تبقى فوق كل علاقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. رقيبًا حين تتكلم، وحين تستطيع أن تأخذ ما ليس لك ولا يراك أحد، وحين يغيب صاحب الحق، وحين يكون الذي أمامك أضعف من أن يعترض، وحين يغضبك إنسان فيرتفع في داخلك صوت يريد أن يتولى الحكم بدل أمر الله.

ولهذا فالعلاقة في القرآن ليست: أنا وهو فقط. هناك دائمًا ثالث لا يغيب: **أنا، وهو، والله.** ومن هنا يتغير السؤال. لا يعود أول ما تسأله: ماذا أشعر نحوه؟ ماذا فعل بي؟ ماذا أريد منه؟ بل يسبق ذلك سؤال أعمق: **ماذا يريد الله مني معه الآن؟**

لكن كلمة «هو» نفسها تحتاج أن تبقى حية. فالذي أمامك ليس مجرد «مقام» وُضع في طريقك لتُختبر به، ولا وظيفةً في قصة عبادتك أنت. هو عبدٌ لله كما أنت عبد، له قلب لا تراه كله، وتاريخ لا تعرف أكثره، وخوف ورجاء وبلاء، وله بينه وبين الله طريق لا تملكه أنت ولا تحيط به.

ولهذا لا يكفي قبل التعامل أن تسأل: ما حقي؟ وما تكليفي؟ هناك سؤال أهدأ يسبق كثيرًا من الأحكام: **ماذا أعرف فعلًا عن هذا الإنسان، وماذا أضفت أنا من تفسير نفسي؟** قد تعرف أنه أخطأ، ولا تعرف لماذا أخطأ. وتعرف أنه قطع، ولا تعرف كل ما حمله إلى القطيعة. وتعرف أنه خالفك، ولا تعرف كل الطريق الذي أوصله إلى ما يقول.

الفهم هنا ليس تبرئةً من الخطأ، ولا إسقاطًا للحق، ولا دعوةً إلى اقتحام القلوب. بل هو تواضعٌ أمام حدود معرفتك: **افهم ما استطعت، واحكم بما ثبت، ولا تدّعِ ما في القلب.** فالله وحده يعلم السرائر، وأنت مأمور أن تلقى أمامك إنسانًا، لا بطاقةً كتبت عليها آخر فعل صدر منه.

الإيمان الذي يظهر عند باب غيرك

هذا هو الطريق نفسه الذي تسلكه السنة. قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفَه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**». (رواه البخاري: 6018، ومسلم: 47).

تأمل أصل التعليل: لم يرد النبي ﷺ هذه الخصال إلى الذوق الاجتماعي ولا إلى الرغبة في قبول الناس، بل ردها إلى الإيمان بالله واليوم الآخر. فالجار يدخل في إيمانك، والضيف يدخل في إيمانك، والكلمة التي تكاد تخرج من فمك تدخل في إيمانك.

وقال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**». (رواه أبو داود: 4682، والترمذي: 1162). فحسن الخلق ليس طبقة تجميلية توضع فوق إيمان اكتمل من دونها؛ شيء من كمال الإيمان نفسه يظهر حين يخرج الإنسان من خلوته إلى الناس.

حسن الخلق لا يزول حين يتغير المقام

ومع تغيّر المقامات يبقى أصل لا يتغير معها: **حسن الخلق قربة إلى الله في ذاته، لا حيلة اجتماعية نستخدمها ما دام الآخر لطيفًا معنا.** سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**» (رواه الترمذي: 2004)، وقال ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق**» (رواه أبو داود: 4799، والترمذي: 2003).

ولم يجعل الوحي ثمرته قبولًا اجتماعيًا يحبه الناس فحسب، بل رفع منزلته في العبادة نفسها. قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» (رواه أبو داود: 4798)، وقال ﷺ: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**» (رواه الترمذي: 2018). فحسن الخلق ليس ما يبقى بعد الفراغ من القربات؛ هو من القربات التي تثقل الميزان، وترفع الدرجة، وتقرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة.

فلا تجعل حسن الخلق مرادفًا للين الدائم. قد يكون من حسن الخلق أن ترفق، وقد يكون أن تصدق كلمةً ثقيلة من غير فحش، وأن تؤدي حقًّا لا تهواه نفسك، وأن تعدل مع من تبغض، وأن تحفظ عهدًا مع من تعادي، وأن تطالب بحقك بلا إذلال، وأن تمنع ظلمًا بلا تشفٍّ. **المقام يغيّر ما يلزمك أن تفعله؛ لكنه لا يمنحك إجازةً في سوء الخلق.**

ولهذا فالمسيء قد يغيّر حقك معه، ولا ينبغي أن يغيّر صدقك وأمانتك وعدلك إلى أضدادها. والمخالف قد يغيّر موضوع الحديث، ولا يبيح لك الكذب عليه. والعدو قد يقوم معه مقام دفع، ولا يسقط معه العدل والعهد. وحين تتغير الصورة ويبقى الخلق لله، تعرف أن الذي يحكمك ليس مزاج العلاقة، بل عبوديتك.

واللسان من أظهر المواضع التي يظهر فيها هذا الثبات. ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ لا تعني جملةً واحدة بنبرة واحدة في كل حال؛ فقد يكون الحسن قولًا كريمًا لوالد، وقولًا لينًا في مقام قوة، وشكوى صادقة لمظلوم، ومطالبة واضحة لصاحب حق، ومجادلة بالتي هي أحسن لمخالف، وقولًا عادلًا لا يُفترى به على عدو، واعتذارًا صادقًا إذا كنت أنت المخطئ. **تتغير صورة القول، ويبقى لسان العبد لله.**

قد يبدو المرء عابدًا إذا خلا، لكن من حوله يرون مواضع أخرى من عبادته: كيف يغضب، وكيف يطالب، وكيف يختلف، وكيف يستعمل قوته، وكيف يكون إذا لم يوافق هواه هوى غيره. هناك يظهر أثر ما في القلب على الحياة.

وليس حضور الله بينك وبين الناس رقابةً فقط. فالناس ليسوا مواضع تخاف أن تظلم فيها فحسب؛ فيهم أبوابٌ إلى رحمة الله وعونه، ويصبح إحسانك إليهم طريقًا بينك وبين ربك.

الناس يغيّرون المقام، والله يحدّد التكليف

تخيّل رجلًا يدخل بيته في دقائق قليلة فيلقى أباه، وزوجته، وعاملًا أصلح له شيئًا، ثم يفتح هاتفه على رسالة من رجل أساء إليه. الأشخاص أربعة، ولا يكون تكليفه معهم واحدًا: لهذا برّ، ولهذه عشرة بالمعروف، ولهذا أجر وكرامة، ومع المسيء مقام آخر له حقه وحدوده. **اختلاف الجواب هنا ليس تقلّبًا في الأخلاق؛ فالخلق الحسن باقٍ، لكن صورته التي يطلبها الله تتنوع لأن المقامات نفسها ليست واحدة.**

لكن الذي غيّر الجواب لم يكن تقلّب مزاجه مع كل واحد؛ بل اختلاف ما جعله الله لكل مقام. وهنا يظهر الميزان: **الناس يغيّرون المقام، والله يحدّد التكليف؛ يتغيّر التكليف بتغيّر المقام ولا يتغيّر مصدره.**

ثبات المرجع لا يعني ثبات الحكم. قد يتغير الحكم لأن المقام تغيّر، لكن الذي يكتب الحكم لم يتغير. **فعلُ الإنسان سببٌ قد يُحدث مقامًا جديدًا، لا حاكمٌ ينشئ التكليف؛ وهو الفرق بين أن يحرّكك وأن يملكك.**

قد تحب فيتغير شيء من المقام، وقد تبغض، وقد تُؤذى، وقد تملك قوة لم تكن تملكها قبل ذلك؛ وكل هذا معتبر. لكن الحب والبغض والألم والقوة لا يجلس واحدٌ منها على عرش الحكم. هي تحرّك المشهد، ولا تملك أن تصبح مصدر التكليف.

فالذي أساء إليك قد يصنع بإساءته واقعًا جديدًا: صار لك بعد الظلم حق لم يكن لك قبله. لكن الله هو الذي جعل للظلم أثره، وهو الذي حدّد ما يثبت لك وحدَّ ما يجوز لك. المسيء قد يحرّك المقام، لكنه لا يملكك. **ما زلت عبدًا لله.**

ولكل علاقة أصل قبل أن تتغير

والمقام لا يبدأ من فراغ. قبل أن يقع الأذى أو الخصام أو الاختلاف، جعل الله لدوائر الناس أصولًا تسبق الطوارئ. **للوالدين إحسانٌ وصحبةٌ بالمعروف، وللزوجين معروفٌ ومودةٌ ورحمة، وللرحم صلة، وبين المؤمنين أخوةٌ ومحبةُ خير، ولعموم الناس قولٌ حسن وكفٌّ للأذى وبذلٌ للمعروف، ولمن لم يقاتلك برٌّ وقسط، ولصاحب الحق حقه، وللضعيف حرمةٌ تشتد حاجتك إلى مراقبة الله فيها.** وحتى إذا قام وصف العداوة لم تسقط معه حدود العدل والعهد والأمان.

هذه الأصول لا تعني أن كل علاقة تبقى على صورتها الأولى مهما وقع فيها. قد يطرأ ظلم فيثبت حق، أو تقوم عداوة فيختلف الحكم، أو تسقط ثقة، أو تتغير حال. لكن معرفة الأصل تمنعنا من أن نبدأ الناس كل مرة من الصفر، كأن آخر موقف محا كل ما جعله الله للعلاقة قبلَه.

ولهذا يبقى معك سؤالان متلازمان: **ما الأصل الذي جعله الله لهذا الإنسان في علاقتي به؟ وما الذي تغيّر الآن حتى تغيّر معه شيء من التكليف؟** ثم يبقى وراءهما سؤال ثالث لا يقل إنسانية: هل رأيتُ الشخص نفسه، أم رأيتُ فقط الوصف الذي قام به في هذه اللحظة؟

حين لا يتغير الناس

ولا يعني ثباتك على ميزان الله أن الناس سيتغيرون لك. قد تحسن ولا يتغير الآخر، وقد تؤدي ما عليك ولا يؤدي ما عليه، وقد تعتذر ولا يقبل، وقد تبقى في ظرف لا تملك تغييره الآن.

القرآن لا يعدك بأن صلاحك سيجعل كل الناس صالحين معك، لكنه يبني فيك شيئًا أعمق: ألا يكون بقاؤك مع الله مرهونًا ببقائهم معك على الصورة التي تريدها. وفي بعض المقامات لا تكون العبادة في أن تحسم العلاقة، بل في أن تبقى لله وأنت لا تملك حسمها. عجزك عن تغيير إنسان لا يخرجه من سلطان الله، ولا يخرجك أنت من العبودية.

لا تدخل هذا الكتاب وأنت البريء دائمًا

يسهل جدًا أن تقرأ كتابًا عن العلاقات وأنت تتخيل نفسك دائمًا الطرف الأفضل: أنا الذي أُسيء إليه، وأنا الذي صبرت، وأنا الذي أحسنت ولم يُقدَّر إحساني. لكن المرآة قد تنقلب فجأة. مديرٌ يغلق باب مكتبه على موظف يعرف أنه لن يرد عليه، فتخرج منه نبرة لا يجرؤ أن يستعملها مع رئيسه. وأخٌ في مجلس قسمة تركة يعرف تفصيلًا لو نطق به تغيّر نصيب غائب، ثم يبتلع الكلمة لأن الصمت هذه المرة أربح له. هنا لا تكشفك المواعظ العامة؛ تكشفك اللحظة التي لا يملك فيها الطرف الآخر أن يدفعك.

قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**». (رواه مسلم: 2578). قد تكون أنت المظلوم، وقد تكون أنت الظالم، وقد تكون مظلومًا في أول الموقف ثم يتحول ردك نفسه إلى ظلم جديد.

وقد يكون لك رصيد من العبادة، ثم تجد في الطريق إلى الله إنسانًا له عندك حساب لم تغلقه. وهنا لا يكفي أن تعرف كيف تصبر على أخطاء الناس؛ لا بد أن تعرف أيضًا كيف تخاف من ظلمك أنت.

حين تدخل حقوق الناس إلى حسابك

سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «**أتدرون ما المفلس؟**» فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار**». (رواه مسلم: 2581).

هذا المشهد يهدم الجدار الوهمي بين «عبادتي» و«معاملتي». الرجل لم يأت بلا صلاة ولا صيام ولا زكاة، جاء بها كلها. لكن أناسًا آخرين دخلوا معه إلى يوم القيامة، لأن لهم عنده حقوقًا. والحسنات التي ظنها ملفًا بينه وبين الله صارت هي التي يُقضى منها للناس.

قد تنتهي القصة عندك لأن السنوات مضت، أو لأن الطرف الآخر سكت، أو لأنه عجز عن الوصول إليك. لكنها لا تنتهي عند الله بمجرد أن تنتهي في ذاكرتك. ومن هنا يصبح قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ عزاءً للمظلوم وحاجزًا للظالم في الوقت نفسه.

العبادة التي لا يراها الناس

حين يستقر هذا المعنى، لا يعود الإنسان محتاجًا دائمًا إلى عين بشرية حتى يكون أمينًا. يدفع في متجر فيعيد إليه البائع باقي الحساب زائدًا، مبلغًا صغيرًا قد لا يراجعه أحد، فتسبق يده إلى جيبه، ثم يتذكر أن غفلة البائع لم تجعل المال حلالًا. هنا لا توجد كاميرا يحتاجها الإيمان، يكفي أن الله يرى.

وقد يمسك كلمةً كانت ستنتصر له في مجلس لكنها تفضح غائبًا، ويحفظ سرًا لا يعرف صاحبه أنه كان قادرًا على نشره، وينصف من لا يحب، ويرد مالًا يستطيع أن يخفيه، ويعترف في خلوته أولًا: كنت أنا المخطئ. هذه عبادات لا يراها الناس، لكنها لا تضيع عند الله.

ومن هنا نصل إلى رقٍّ أخفى من الخوف والطمع: **أن تصبح صورتنا في أعين الناس سيدةً علينا.** نحن أضعف أمام المدح والذم مما نحب أن نعترف. قد نقول ما لا نعتقد لأننا نخشى أن نخسر القبول، ونسكت عن كلمة لازمة لأن وجهًا مهمًا سيتغير علينا، ونبالغ في معروفٍ إذا كانت العيون حاضرة ثم يبرد الخير حين لا يراه أحد.

وقد لا نطلب من الناس مالًا ولا منصبًا، ثم نطلب منهم شيئًا أشد سلطانًا: أن يطمئنونا دائمًا أننا جيدون. فإذا مدحونا نشطنا، وإذا انتقدونا اضطرب ميزاننا، وإذا لمع غيرنا شعرنا أن الضوء الذي وصل

إليه سُحب من نصيبنا. عندها لا يعود الناس عبادًا نلقاهم؛ يصيرون مرايا نطلب منها أن تعيد إلينا الصورة التي نحبها عن أنفسنا.

ولا يعني التحرر من هذا الرق أن لا تبالي بقلوب الناس، أو أن تجعل القسوة اسمًا للاستغناء عنهم. من الإحسان أن تراعي، ومن الحكمة أن تسمع النقد، ومن الوفاء أن تحفظ الود. لكن الفرق بين أن تسمع الناس وبين أن تعبد صورتك عندهم هو: **هل تستطيع أن تفعل ما علمت أنه لله ولو لم يصفقوا، وأن تترك ما علمت أنه خطأ ولو كلفك شيئًا من إعجابهم؟**

إذا عرف العبد أنه يعبد الله وهو بين الناس، تحررت أخلاقه من أن تكون رهينة رضاهم وسخطهم. يؤثر فيه كلامهم، نعم؛ فالإنسان ليس حجرًا. لكنه لا يمنح أعينهم حق أن تكتب له من يكون.

قبل أن يقع بينكم شيء

غير أن معظم لقاءاتنا بالناس لا تبدأ بمظلمة ولا خصومة ولا حق متنازع. نلتقي الناس قبل ذلك: في البيت والطريق والعمل والجوار، وقد يمر بك إنسان لا تكون بينك وبينه قصة أصلًا.

فإذا كان الله هو الذي يحدد التكليف في علاقتك بالناس، فما الأصل الذي ينبغي أن يلقوه منك قبل أن يطرأ ما ينقل العلاقة إلى مقام آخر؟ هل يكفي أن تقول: لم أظلم أحدًا؟ أم أن القرآن يريد أكثر من مجرد كف الشر؟

هنا تأتي كلمة من ميثاق قصه الله علينا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]. ليس السؤال فقط: كيف تكف أذاك عن الناس؟ بل: **ما الخير الذي ينبغي أن يلقوه منك قبل أن يقع بينكم شيء؟**

من السلامة إلى الخير

قبل أن يظلمك أحد، وقبل أن يطالبك بحق، وقبل أن يدخل القرب والقوة والاختلاف والعداوة إلى المشهد، هناك مساحة أوسع من ذلك كله: الناس الذين يمرون بك كل يوم قبل أن تنشأ بينك وبينهم قصة كبيرة. وجه عند الباب، وموظف إلى جوارك، وجار لم تقع بينكما مشكلة، وعامل لا تعرف عنه إلا اسمه، ورسالة تصل إلى هاتفك من شخص لا تربطك به إلا دقائق عابرة.

هؤلاء سيأخذون منك شيئًا على كل حال: كلمة، أو نظرة، أو نبرة، أو سلامًا، أو جفاءً، أو ابتسامة. فما الذي ينبغي أن يلقوه منك قبل أن يطرأ ما ينقل العلاقة إلى مقام آخر؟ هنا تقف أمامنا الكلمة التي حمل الكتاب اسمها، من ميثاق قصه الله علينا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]. ليست الآية وحدها هي التي تحمل تفاصيل هذا الباب، لكنها تفتح بابه: أن يكون أول ما يصل من المؤمن إلى الناس حسنًا، لا أذى يحتاج بعد ذلك إلى إصلاح.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾... أن تلقى الناس لا أن تمر بهم فقط

وقبل الحديث عن كف الأذى، يقرر القرآن حقيقة أوسع تتعلق بتنوع الناس وحكمة تعارفهم.: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

﴿لِتَعَارَفُوا﴾. لا تلغي الآية الفروق بين الناس؛ تذكر الشعوب والقبائل ثم تنزع منها حق الاستعلاء. يعرف بعضنا بعضًا، ونبقى مختلفين في أسماء وأنساب وأحوال، لكن قيمة الإنسان عند الله لا يكتبها الاسم الذي يحمله ولا الجماعة التي ينتسب إليها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وليس المقصود أن كل لقاء سيصير صداقة، ولا أن التعارف يمحو اختلاف الدين أو الحق والباطل أو الحدود المشروعة. إنما يغيّر البداية: الذي أمامك ليس كلمة مجهولة تمر بها حتى تحتاج منها شيئًا. هو إنسان يمكن أن تعرف اسمه، وتسمع كلامه، وتكتشف خيرًا لم يظهر من أول نظرة، وتفهم من حاله ما يجعلك أعدل وأرحم في معاملته.

قد يكون أول الإحسان أن تراه أصلًا.

أول الخير أن يأمنك الناس:

قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**». (رواه البخاري: 10، ومسلم: 40). قبل المعروف الكبير، وقبل الهدية، وقبل الكلمة الجميلة، هناك إنسان يأمن الناس أن يقع عليهم منك أذى.

والحديث هنا في سلامة المسلمين بعضهم من بعض، فلا نوسّعه قسرًا؛ لكن الباب الذي فتحه القرآن أوسع: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾. فخصوص هذا الحديث يقرر عتبة السلامة داخل باب أوسع لا يضيق عن الناس.

قد لا تمد يدك إلى أحد بسوء، ثم تجعل لسانك يدًا أخرى: تعرف موضع الكلمة في قلب صاحبها فتضعها هناك عمدًا؛ أو تكتب في مجموعة جملة تعرف أنها ستجعله موضع ضحك؛ أو يدخل عليك موظف فيتهيأ قبل أن يتكلم، لا لأنه مقصر، بل لأنه لا يدري بأي نبرة ستستقبله اليوم. وقد يعرف أهل بيتك من صوت المفتاح عند الباب أي مساء ينتظرهم.

ليس السؤال الأول في حسن العلاقة: هل يحبني الناس؟ بل: **هل يأمنونني؟** فالذي يحبه الناس وهم لا يأمنون لسانه لم يبلغ بعد أول الطريق.

من السلامة إلى الكلمة التي يحبها الله

لكن القرآن لا يريد منك أن تكون إنسانًا لا يؤذي فحسب. قال الله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ [الإسراء: 53].

تأمل أول الكلمة: ﴿**لِعِبَادِي**﴾. قبل أن يأمرهم كيف يتكلمون مع الناس، نسبهم إليه. فاختيار الكلمة التي هي أحسن ليس مهارة اجتماعية فقط؛ إنه أثر من آثار أنك عبد لله.

قد يكون أمامك إنسان لن يعرف أبدًا أنك ابتلعت جوابًا أقسى. لن يشكرك، وربما لن ينتبه إلى شيء. لكن الله يعلم أن كلمة أخرى كانت على طرف لسانك ثم تركتها له. وهنا تتغير قيمة الكلام: أنت لا تقول الأحسن لأنك تضمن أن يقابلك الناس بمثله، ولا لأن أحوالهم ومواقفهم منك سواء؛ تقولها لأن الذي قال ﴿ **وَقُلْ لِعِبَادِي**﴾ هو الذي قال بعدها ﴿**يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

ولذلك لم تجعل السنة الكلمة أمرًا صغيرًا. قال رسول الله ﷺ: «**والكلمة الطيبة صدقة**». (رواه البخاري: 2989، ومسلم: 1009). قد لا يكون في يدك مال تعطيه، لكن بين شفتيك معروف تستطيع

أن تبذله: جملة تشجع مترددًا، وشكرٌ لمن اعتاد الناس أن يأخذوا عمله كأنه لا يُرى، وردٌّ لا يشعر معه صاحبه أنه أثقل عليك بمجرد أنه كتب إليك.

ولم تقف منزلة الكلمة عند كونها صدقة. قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة**» (رواه البخاري: 6023، ومسلم: 1016). كلمة لا تنقص من مالك شيئًا قد يجعلها الله من أسباب النجاة، ولذلك لا ينبغي أن تمر الكلمة الحسنة في يومك كأنها أدب زائد، وهي عند الله عمل صالح.

ثم تكشف الآية خطر الكلمة من الجهة الأخرى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾. لا يحتاج النزاع دائمًا إلى قضية كبيرة، قد تكفي جملة قابلة للاشتعال، أو رسالة تُقرأ بنبرة لم تقصدها، أو مزاح تجاوز موضعه، أو كلمة ينقلها ثالث ناقصة. وفي آخر اليوم تقف علاقة كاملة أمام خصومة بدأت بشيء ظنه قائله أصغر من أن يستحق الوقوف عنده.

اختيار ﴿**الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ ليس تجميلًا للكلام بعد وقوع المشكلة؛ هو حراسة للعلاقة قبل أن تحتاج إلى علاج.

لأن الله رفيق ويحب الرفق

وهنا تنقل السنة الرفق من «الطريقة الأنسب» إلى مقام أرفع. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**». (رواه البخاري: 6927، ومسلم: 2165).

الله رفيق، ويحب الرفق. فإذا قدرت على الإحراج واخترت أن تحفظ كرامة الإنسان، وإذا ملكت أن تختصر الطريق بالنهر فاخترت أن تشرح، وإذا كنت صحيحًا في أصل كلامك ثم بحثت عن أرفق طريق يوصله، فأنت لا تحسن إدارة الموقف فقط؛ أنت تطلب شيئًا يحبه الله.

هذه نقلة كبيرة في القلب. قد يكون الذي أمامك صعبًا، ولم يصبح فجأة ألين طبعًا. لكن الله لم يتغير. تمر في قلبك كلمة: **الله يحب الرفق**؛ فتتغير نبرتك لا لأن الطرف الآخر فرض عليك خلقًا جديدًا، بل لأنك ما زلت عبدًا لمن يحب الرفق.

وإذا أردت أن ترى هذا الخلق خارج لحظة الموعظة، فانظر إلى عشر سنين كاملة من اليوم العادي. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «**خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت**». (رواه البخاري: 6038، ومسلم: 2309).

عشر سنين ليست موقفًا عابرًا تهيأ له الإنسان ثم انصرف. إنها صباحات وأعمال وأشياء تُنسى وأخرى لا تقع كما أراد صاحبها. ومع ذلك بقي في ذاكرة أنس من طول الصحبة هذا الأثر: لم يجعل النبي ﷺ

القرب والخدمة اليومية إذنًا لأن يحمل كلامه من الضيق أكثر مما يحتاجه الموقف. هكذا يصير الرفق خُلُقًا يعيش في الأيام، لا عبارة جميلة تقال عند الحديث عنه.

خير يبدأ في القلب ثم يخرج إلى الناس

ومع ذلك، لو انتهى الباب عند كف الأذى والقول الحسن لبقي ناقصًا. ففي دائرة الأخوة الإيمانية ينقل النبي ﷺ الخير إلى داخل القلب نفسه، فيقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». (رواه البخاري: 13، ومسلم: 45).

من السهل أن تقول لصاحبك: وفقك الله. لكن ماذا يحدث فيك إذا وُفِّق فعلًا إلى شيء كنت تتمناه أنت؟ إذا اختير هو للمنصب الذي أردته، أو أثنى الناس عليه في مجلس كنت فيه، أو نجح مشروعه بينما تعثر مشروعك؟ هنا يُختبر معنى أن تحب له ما تحب لنفسك.

قد يسلم الناس من يدك ولسانك، ويبقى في قلبك ضيق بخيرهم. ونحن نعرف هذا الخاطر أكثر مما نحب أن نعترف: ينجح غيرنا في شيء تمنيناه، أو يسبقنا إلى منزلة، أو يُذكر بخير ونحن حاضرون، فيتحرك داخل النفس شيء لا يراه أحد.

وليس كل خاطر عابر حسدًا؛ فقد يرد الخاطر فيدفعه صاحبه ويكرهه. لكن الخطر أن نربيه حتى نضيق بالنعمة لأنها لم تكن لنا، أو نتمنى زوالها، أو نفرح سرًّا إذا انكسرت. هنا لا يعود امتحان العلاقة في اللسان، بل في قدرتنا أن نرى خير الله يصل إلى عبد آخر من غير أن نشعر أن خزائن الله ضاقت علينا.

والوحي يريد أكثر من أن نكف أذى الحسد؛ يريد قلبًا يتعلم أن **يحب لأخيه ما يحب لنفسه**. وهذه منزلة لا تأتي بقرار واحد. قد تبدأ بأن تمنع نفسك من كلمة تقلل من نجاحه، ثم تذكر الله الذي أعطاه، ثم تدعو له، ثم تكرر ذلك حتى لا يعود خير غيرك خصمًا لخيرك.

ثم لا يترك هذا الحب معنى خفيًا في الداخل. قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**». (رواه مسلم: 54).

جنة، ثم إيمان، ثم محبة، ثم عمل صغير تستطيع أن تفعله وأنت تمشي: السلام. أن لا تمر بالناس كأنك لا تراهم، وأن لا يصبح السلام خاصًا بمن تحتاج إليه، وأن تبدأ الخير قبل أن يطلبه منك أحد.

الألفة نفسها نعمة

وليست المحبة بين المؤمنين مجرد واجب ثقيل نطالب القلب أن يؤديه. يذكّر القرآن أن الألفة نفسها من عطايا الله، فقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

بعض الناس في حياتك ليس امتحانًا تصبر عليه فقط؛ هو نعمة. صاحبٌ ترتاح إليه، وأخ تفرح لفرحه، وإنسان يحمل عنك يومًا وتحمل عنه يومًا، ووجه يخف معه ثقل الطريق. وحين نرى الألفة هبةً من الله، لا تبقى العلاقات قائمةً كلها على سؤال: ما الذي يجب عليّ؟ يدخل عليها سؤال آخر أدفأ: **ما النعمة التي أعطاني الله إياها في هذا الإنسان؟**

والشكر هنا ليس أن نمتلك من نحب أو نطلب منه أن يبقى على الصورة التي نريد؛ بل أن نحسن صحبته، ونفرح بخيره، وندعو له، ونعرف أن من نعم الله على العبد أحيانًا عبدًا آخر يؤنسه في الطريق.

وهذا وجه ينبغي ألا يضيع تحت كثرة الحديث عن الحقوق والخصومات: **الناس ليسوا كلهم واجبات ثقيلة ولا أخطارًا تحتاج إلى ضبط.** فيهم رحمٌ جعلها الله حولك، وأهلٌ تسكن إليهم، وأخوةٌ يثبتونك، وصاحبٌ يخفف الطريق، وغريبٌ يفتح لك باب معروف، وإنسانٌ تلقاه مرةً فيترك في يومك خيرًا. ومن تمام العبادة أن ترى هذه النعم وهي في صورة بشر، فتشكر وُدَّها بالإحسان، وتحفظها بالخلق الحسن، ولا تستيقظ لقيمتها بعد أن تفقدها.

والقرآن لا يجعل التحية مجاملة من طرف واحد، بل يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86]. حتى السلام يمكن أن يصعد درجة: ردٌّ، أو أحسن من الرد.

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**». (رواه مسلم: 2626). نحن الذين نصنف المعروف إلى كبير يستحق أن نحسبه، وصغير لا نراه؛ أما السنة فلا تريدك أن تحتقر حتى الوجه الذي تلقى به أخاك.

والقرآن يحرس حتى هيئة اللقاء من الكبر والاحتقار: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: 18]. فقد لا تقول كلمة جارحة، ثم يقول وجهك للإنسان كل ما أمسكت عنه لسانك.

قد يدخل إنسان مكانًا وهو يحمل من همه ما لا تعرفه. لا يحتاج منك خطبة ولا حلًا لمشكلته، يحتاج فقط ألا تزيد يومه ثقلًا: وجه غير عابس، ومكان تفسحه، وباب تمسكه لحظة لمن خلفك، وكلمة شكر لعامل يمر عمله كل يوم من غير أن يلتفت إليه أحد. أشياء صغيرة عند فاعلها، وقد تكون كبيرة في يوم من وقعت عليه.

فالخير ليس فقط ما تعطيه؛ من حسن العلاقة أيضًا كيف تستقبل خير الآخرين. قال رسول الله ﷺ: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**». (رواه أبو داود: 4811، والترمذي: 1954).

وقد يكون أمامك عامل أو موظف لا تربطك به إلا دقائق، ثم يصنع لك ما يتجاوز واجبه: ينتظر، أو يراجع خطأ، أو يحمل عنك ما لم يكن ملزمًا به. من الخير أن لا تمر بالمشهد كأنه حق مكتسب؛ كلمة شكر صادقة قد تكون كل ما يصل إليه من إحسانك.

القول الحسن ليس قناعًا حسنًا

لكن هنا باب خلفي خطير: يمكن للإنسان أن يتعلم كيف يبدو حسنًا. يعرف العبارات التي تكسب القلوب، ويبتسم في الموضع الصحيح، ويحسن الثناء، ويقول ما يريد الناس سماعه، بينما في الداخل شيء آخر.

ولهذا لا يكفي أن يكون الكلام لطيفًا. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: 70-71].

مرة أخرى يبدأ القول من الله: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ**﴾، ثم يأتي ﴿**وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾. فالحسنى ليست مجاملة كاذبة، والرفق ليس بيع الحقيقة طلبًا للقبول. السداد يحرس الرفق من أن يصير مداهنة، والرفق يحرس السداد من أن يتخذ القسوة هوية.

ثم يفتح الله أمام هذا القول بابًا أعظم من إعجاب الناس: ﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾. يا لها من منزلة للكلمة: قد تنظر إليها على أنها هواء يمر، والقرآن يضع القول السديد بين تقوى الله وإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب.

وفي الجهة المقابلة يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]. قول يعجبك، بل يستشهد صاحبه بالله، ومع ذلك تكشف الآية وراء جمال اللفظ قلبًا آخر.

إذن ليس عنوان هذا الكتاب دعوة إلى صناعة لغة ناعمة. المطلوب **حسن صادق**: قول يحفظ القلب ولا يخون الحقيقة؛ رفق لا يبيع الحق، وصدق لا يتلذذ بجرح الناس.

حين يكون الإنسان غائبًا عنك

وقد لا يكون امتحان الحسنى والعدل والرحمة والإنسان أمامك أصلًا. قد يكون غائبًا، ويصل إليك عنه خبر، أو تقع في نفسك له تهمة، أو يفتح لك فضولك بابًا إلى ما ستره، أو يجلس الناس فيأكلون من عرضه وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه.

في هذه المساحة تبدأ العلاقة أحيانًا قبل اللقاء. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

قد لا تؤذي إنسانًا بيدك ولا بكلمة تواجهه بها؛ يكفي أن تصدق عنه ما لم يثبت، ثم تبني على الخبر حكمًا، أو موقفًا، أو نقلًا إلى غيرك. لذلك جاء التبين قبل الندم؛ لأن الخبر إذا دخل القلب من غير باب التثبت قد يخرج منه ظلمًا كاملًا.

لكن التثبت ليس برودةً تنتظر بها الدليل فقط؛ ففي بعض المواطن يعلّمك القرآن أن يكون **الخير حاضرًا في تفسيرك قبل الشر**. وفي حادثة الإفك قال الله تعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: 12].

تأمل: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾. سمّى المؤمنين بعضهم أنفسًا لبعض، ثم علّمهم أن لا يكون السوء هو التفسير الأول الذي يملأ الفراغ. ليس معنى ذلك أن نكذب الحقائق أو نحسن الظن حيث قامت البينة على خلافه؛ إنما معناه أن لا نصنع الإدانة من فراغ، وأن نعطي أخانا من الخير الذي نعرفه عنه وزنًا حين يأتي خبر يريد أن يمحو الصورة كلها.

كم من علاقة انكسرت لا بما ثبت، بل بما فسرناه: تأخر فلم يرد، فقلنا يحتقرني. مرّ ولم يسلم، فقلنا تعمد. اختصر كلامه، فقلنا تغير قلبه. وقد يكون بعض ذلك صحيحًا، وقد لا يكون؛ لكن الفرق بين الحقيقة والحكاية التي بنتها النفس يجب أن يبقى ظاهرًا.

ثم تذهب السورة نفسها أعمق من الخبر إلى ما يصنعه القلب من غير خبر أصلًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

تأمل الحركة: ظن في القلب، ثم تجسس يبحث عما يؤيده، ثم غيبة تنقل ما عرفته أو ظننته إلى الناس. يبدأ الأمر بصورة داخلية لإنسان غائب، وقد ينتهي بأن يعيش بين الناس داخل صورة لم يصنعها هو.

ومن هنا تكون الحسنى أحيانًا أن نتوقف قبل الحكم. أن تقول: لا أعلم. وأن لا تحول الاحتمال إلى يقين لأنك لا تحب صاحبه. وأن لا تجعل قدرتك على الوصول إلى رسالة أو صورة أو سر إذنًا بالبحث عما لم يؤذن لك فيه. وأن لا تجعل عيبًا رأيته في خلوة إنسان مادةً لمجلس كامل.

والستر لا يعني إخفاء ظلم يجب بيانه، ولا السكوت عن ضرر يحتاج من يملك دفعه إلى معرفته؛ فهذه مقامات أخرى لها حقها. لكنه يعني أن لا يتحول فضولك إلى ولاية، ولا معرفتك بعيب إلى ملكية لعرض صاحبه.

وأقسى ما في صورة الغيبة التي رسمها القرآن أن صاحبها غائب لا يدفع عن نفسه: ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾. كأن الوحي يرد إلى المجلس إنسانًا أخرجه الغياب منه، ويضع حرمته أمام الحاضرين.

فمن حسن علاقتك بالناس أن يحفظهم منك حضورهم، وأن يحفظهم منك غيابهم أيضًا.

وحفظ الغائب ليس كفًّا فقط. قد يغيب عن مجلسك، ومع ذلك يصل إليه منك خير لا يعرف مصدره. قال رسول الله ﷺ: «**دعوةُ المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكّل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك: آمين، ولك بمثل**». (رواه مسلم: 2733).

هنا تنقلب الغيبة إلى صورة أخرى تمامًا: إنسان غائب لا يسمعك، ولا يراك، ولا يستطيع أن يشكرك، وأنت تذكره عند الله لا عند الناس. بدل أن يحمل المجلس عرضه، يحمل دعاؤك حاجته.

وهذا من أدفأ أبواب مقاومة الحسد أيضًا. إذا ضاق صدرك بخير وصل إلى أخيك، فلا تكتف بأن تمنع لسانك من الانتقاص؛ ادع الله أن يبارك له ويزيده من فضله. قد يبدأ الدعاء مجاهدةً للنفس، ثم يصبح من جمال الأخوة أن يفرح قلبك بخيرٍ أنعم الله به على أخيك، وإن لم يكن لك فيه نصيب؛ فمن حسن علاقتك بالإنسان أن يأمنك إذا غاب، ومن تمام الخير أن يجد في غيابه من يدعو له.

حين يصبح اليوم العادي عبادة

تخيل يومًا لا يقع فيه شيء يستحق أن يُروى: تلقي السلام على رجل لن يقدم لك شيئًا، وتفسح الطريق لإنسان لن تعرف اسمه، وتشكر عاملًا قد لا تراه مرة أخرى، وتمسك كلمة ساخرة كان يمكن أن تضحك المجلس، وتكتب ردًا أهدأ مما تستدعيه اللحظة في نفسك، وترى نجاح أخيك فيأتيك أول خاطر ضيق ثم تجاهد قلبك حتى تقول بصدق: اللهم بارك له.

وقد يأتيك أخوك في حاجة وأنت غارق في حاجتك أنت: موعد يضغطك، وعمل لم ينته، ووقت كنت قد ادخرته لنفسك. تستطيع أن تعتذر وتمضي، ثم تختار أن تقف معه؛ اتصالًا، أو مشوارًا، أو كلمةً عند من يستطيع أن يقضي له أمره. من الخارج يبدو أنك أخّرت شأنك لتقضي شأنه. لكن السنة تكشف وجهًا آخر للمشهد، قال رسول الله ﷺ: **«ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»**. (رواه البخاري: 2442، ومسلم: 2580). أنت لم تخرج من حاجتك حين دخلت في حاجته؛ دخلت بابًا يكون الله فيه في حاجتك. هنا لا يعود الإحسان مجرد شيء يصل إلى إنسان ثم ينتهي عنده؛ يصير طريقًا بينك وبين ربك.

لا واحدة من هذه تصنع خبرًا، ولا تحتاج صورة، ولا يصفق لها أحد. ومع ذلك قد يمتلئ بها يومك عبادة؛ لأنك لم تكف أذاك فقط، بل وصل منك خير، ولأن الخير نفسه لم يعد واقفًا عند الناس: يخرج منك إليهم، ثم يفتح لك بابًا إلى الله.

هكذا لا تعود عبارة «طريقًا إلى رب الناس» خاتمةً جميلة فحسب؛ تراها تعمل. تقول الأحسن لأنك من عباده، وترفق لأن الله يحب الرفق، وتعين أخاك فتكون في موضعٍ يكون الله فيه في حاجتك. **الخير يمر بالناس، لكنه لا يقف عندهم.**

لكن الناس لا يبقون جميعًا في هذه المسافة. منهم من يقترب حتى يصير من أحب الناس إليك. والقرب نفسه سيضع الميزان أمام امتحان جديد: هل يبقى الله هو الذي يحدد التكليف حين يصبح القلب نفسه طرفًا في العلاقة؟

حين يكون الناس أقرب ما يكونون

ليس أصعب الناس عليك دائمًا أبعدهم. قد يكون أصعب امتحاناتك مع الذين تحبهم أكثر، لأن الغريب يرى منك النسخة التي أعددتها للناس، أما القريب فيراك حين تسقط الصورة: حين تتعب، وحين تضيق، وحين لا تحتاج إلى أن تحفظ انطباعًا عنده.

قد تجمع نفسك ساعةً في مجلس أو اجتماع، ثم ترجع إلى بيتك وقد استنفدت نصيبك من التهذيب. هناك زوجة لا تحتاج أن تكسب إعجابها كل صباح، ووالدان يعرفانك قبل أن تصنع صورتك، وولد يكرر السؤال، وأخ بينك وبينه من التاريخ ما يجعل الكلمة أسرع خروجًا. وهنا بالذات يظهر السؤال: **هل يبقى الله هو المرجع حين يصبح الذي أمامك من أحب الناس إليك؟**

حين تسقط الصورة

قال رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**». (رواه الترمذي: 3895). لم يجعل الخيرية شيئًا يلمع أمام الغرباء ثم يختفي وراء باب البيت. ردّك إلى الذين يرونك بلا إعداد طويل.

وسُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ فقالت: «**كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**». (رواه البخاري: 676). صورة قصيرة، لكنها تزن كثيرًا: النبوة لا تجعل البيت موضعًا يتخفف فيه الإنسان من الخُلُق، والعبادة لا تبدأ حين يخرج إلى الصلاة فقط. قبلها بيت، وأهل، وخدمة.

قد يحتمل الرجل خطأ مديره لأنه يحتاج إليه، ثم لا يحتمل خطأ ابنه لأنه يملك عليه الأمر. وقد تسمع المرأة لصديقتها طويلًا، ثم تضيق من أمها حين تعيد القصة نفسها. وقد يشكر الإنسان من قدم له كوب ماء في مجلس، ثم تمر عليه خدمة أهله كل يوم كأنها جزء من الجدار. القرب يكشف شيئًا لا تكشفه المجاملة العابرة: **ماذا يبقى من خُلُقك حين لا تحتاج أن يمدحك أحد؟**

من آياته أن يجعل بينكم

والقرآن لا يبدأ قرب الزوجين من قائمة مطالب متبادلة، بل يرفع النظر أولًا إلى الله. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

من آياته. هو الذي خلق، وهو الذي جعل. قبل أن تكون العلاقة قصة بين اثنين، هي آية تشير إلى رب الاثنين. ثم يجمع القرآن بين ﴿مَوَدَّةً﴾ و﴿رَحْمَةً﴾؛ فالمودة تناسب ساعات الإقبال، والرحمة تظهر حين لا يكون من تحب في أفضل حالاته: حين يمرض، أو يضعف، أو يثقل، أو تتعب النفس من تكرار الأيام.

قد يبدأ الإنسان العلاقة وهو يسأل: ماذا سأجد عند هذا الشخص؟ لكن العبودية تدخل فتفتح سؤالًا آخر: **ماذا يريد الله أن يجد هذا الإنسان عندي؟** هنا لا يعود القرب مجرد راحة تطلبها، بل أمانة تُسأل كيف حملتها.

المعروف حين لا يساعدك الشعور

ولهذا لم يجعل القرآن حسن العشرة متوقفًا على أن يكون القلب ممتلئًا بالرضا كل يوم. قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

هذه آية تعرف الإنسان. تعرف أن القريب قد ترى منه ما تكره، وأن خصلة واحدة تستطيع في لحظة غضب أن تملأ الصورة كلها. لكن القرآن لا يقول: إذا وجدت الكراهة فقد انتهى المعروف. يأمر بالمعروف، ثم يعترف بما تكره، ثم يفتح لك بابًا في الغيب: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

نحن نرى اللحظة، والله يعلم ما لا نرى. قد نرى نقصًا حاضرًا، ولا نرى خيرًا بقي، ولا خيرًا سيأتي، ولا معروفًا سبق حتى غطاه انفعال الساعة. وقد نرى الفعل ولا نرى تعب صاحبه، أو خوفه، أو الجهد الذي بذله ثم أخطأ بعده. لا نملك أن نخترع له عذرًا من عندنا، لكننا نملك أن نترك في حكمنا مكانًا لما لا نعلم.

الإيمان هنا لا يطلب منك أن تنكر ما تكره؛ يطلب منك ألا تجعل ما تكرهه يعيد تعريف الإنسان كله. **ما رأيته منه حقيقة، لكنه ليس بالضرورة كل حقيقته.** وهذا وحده يغيّر نبرة العتاب وطريقة السؤال ومقدار اليقين الذي تتكلم به عن قلبه.

حتى اللقمة تصل

وقد نظن أن عبادة الله في البيت لا تكون إلا بالصلاة فيه أو بتعليم القرآن، ثم تأتي السنة إلى شيء بالغ الصغر. قال رسول الله ﷺ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك**». (رواه البخاري: 56، ومسلم: 1628).

حتى لقمة تضعها في فم زوجتك. فعل قريب، دافئ، شديد العادية. لكن كلمة واحدة تفتح له السماء: **تبتغي بها وجه الله**. فتخرج اللقمة من يدك إلى إنسان تحبه، ولا تنتهي عنده؛ تصير لك أجرًا عند الله.

وهنا سر من أسرار القرب: ليست العبودية دائمًا أن تترك شيئًا تحبه لله. أحيانًا تعبد الله **داخل الشيء الذي تحبه**. تجلب دواءً، تقضي مشوارًا، تحمل شيئًا عن أهل بيتك، تجلس إلى أمك في حديث تعرف بعضه، أو تصغي إلى ولدك في قصة صغيرة عظيمة في عينه. الاعتياد يجعل هذه الأشياء تختفي، والنية تعيدها إلى طريق الله.

كم من أعمال البيت تمر من يدك كل يوم ولا تتغير هي، لكنك تتغير أنت حين تعرف لمن تفعلها.

إذا طلب القريب ما لا يرضي الله

وليس القريب دائمًا هو الطرف الأقوى في العلاقة. قد تكون أنت الابن الذي يريد رضا والديه، ويثقل عليه أن يرد لهما طلبًا؛ وقد يكون الحب نفسه هو موضع الضغط، لأن خسارة رضا القريب تؤلم أكثر من خسارة رضا البعيد. هنا لا تكون العبودية أن تملك، بل أن لا تذوب. قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [لقمان: 15].

تأمل اجتماع الجملتين: ﴿**فَلَا تُطِعْهُمَا**﴾، ثم ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾. أعظم طلب باطل يمكن أن يطلبه والد من ولد: أن يشرك بالله. فلم يُبق القرآن للطاعة مكانًا في الباطل، ولم يجعل الباطل نفسه ممحاةً تمحو حق الصحبة بالمعروف.

هنا ترى ميزان الكتاب حيًا لا تعريفًا: **القرب غيّر المقام، لكنه لم يصبح المرجع؛ والمخالفة غيّرت التكليف في الطاعة، لكنها لم تمحُ المعروف**. الله هو الذي قال: ﴿**فَلَا تُطِعْهُمَا**﴾، وهو نفسه الذي قال: ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾.

فقد تقول «لا» وأنت بار. وقد تخالف من تحب وتبقى حسن الصحبة. الحب لا يحتاج أن يتحول إلى طاعة مطلقة حتى يكون حبًا، والثبات لا يحتاج أن يتحول إلى قسوة حتى يكون ثباتًا. تحب الإنسان، ولا تعبده. وتحفظ حقه، ولا تمنحه حق الله.

وهذا المشهد خاصٌّ ببر الوالدين وحكم الطاعة فيهما، فلا يُنقل بتفاصيله إلى كل علاقة قريبة؛ لكنه يكشف معنى قلبيًا أوسع: قد تكون الأضعف في علاقة تحبها — ابنًا، أو زوجًا لا يملك الكلمة الأعلى في البيت، أو قريبًا يخشى أن يخسر القرب — وقد يكون ثباتك لله مؤلمًا لك أنت قبل أن يكون موقفًا من غيرك. أن تبقى لله من غير أن تذوب، وأن تحفظ ما أوجبه الله من المعروف من غير أن تسلّم مرجعك لأحد.

الكِبَر يعكس جهة الحاجة

ثم ينقلك القرآن إلى صورة أخرى من القرب: أن يضعف من كنت ضعيفًا بين يديه. قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23-24].

مرة أخرى يبدأ من التوحيد: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ثم الوالدان. وحين يذكر الكبر لا يرسم صورة مثالية؛ الكبر قد يعني التكرار والبطء والحاجة والقلق، وأن يصير من كان يقضي حاجتك محتاجًا إلى أن تعيد له الجملة أو تمسك بيده أو تنتظر خطواته.

ومن تمام الرحمة أن نحاول أحيانًا أن نرى المشهد من الجهة الأخرى. ما نراه نحن «تكرارًا» قد يكون عند كبير السن خوفًا من أن يفلت منه ما كان يملكه، وما نراه «بطئًا» قد يكون جسدًا لم يعد يطاوع صاحبه كما كان، وما نراه إلحاحًا قد يكون حاجة إلى الطمأنينة أو إلى أن يشعر أنه ما زال مسموعًا.

لسنا نعرف أن هذا تفسير كل حالة؛ لكن مجرد احتماله يكفي ليمنعنا من أن نفسر كل ما يثقل علينا تفسيرًا أخلاقيًا سيئًا في صاحبه. وأحيانًا يحتاج المعروف إلى أن تسأل قبل أن تحكم: **ماذا يفعل العمر بهذا الإنسان الذي أمامي؟**

وهنا يدخل الامتحان في أدق الأصوات: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾. حتى نفَس الضيق الذي يكاد صاحبه لا يعده كلامًا. فقد تؤدي الحاجة بيدك، ثم تكسر القلب بالطريقة التي أديتها بها. والقرآن لا يريد الخدمة وحدها؛ يريد ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ثم قلبًا يخفض رحمةً: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.

ثم يردك آخر المشهد إلى الله: ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. حتى وأنت تخدمهما لا تتوهم أنك تملك لهما الرحمة كلها. تفعل ما تستطيع، ثم ترفع من تحب إلى رحمةٍ أوسع منك.

الرحم ليست صفقة

ومع القرب تأتي القرابة، والنفس تحب الحساب السهل: أزور من يزورني، وأسأل عمن يسأل عني، وأبدأ من بدأ بي. فإذا انقطع الآخر شعرت أن العقد انتهى. لكن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**». (رواه البخاري: 5991).

المكافأة ليست باطلة؛ لكنها لا تكشف وحدها عبودية الصلة. الصلة تُختبر حين لا يعطيك الطرف الآخر السبب النفسي الذي يجعلها سهلة. هنا يظهر: هل كان خيرك كله ثمنًا لخير الناس، أم أن لله في العلاقة حقًا أبقى من مزاج التبادل؟

وتزيد السنة المعنى حرارةً: قال رسول الله ﷺ: «**الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**». (رواه مسلم: 2555). من ينظر إلى المشهد من الأرض يرى مكالمة أو زيارة أو رسالة بدأتَ بها أنت. والسنة تريك فوق المشهد شيئًا آخر: **وصله الله**.

وحين ترى هذه الجهة من الصلة، يضيق سؤال النفس: «لماذا أبدأ أنا دائمًا؟». قد يبقى التعب، وقد تحتاج العلاقة إلى قدرها وحدودها في مواضع أخرى، لكن الصلة لم تعد واقفةً عند باب قريبك وحده. صار لها باب عند الله.

الحب لا يملك من تحب

الذين تحبهم ليسوا ملكًا لك. هم عباد لله قبلك. لا يبيح لك الحب أن تصوغهم بهواك، ولا يجعل صدق قصدك كل وسيلة مشروعة. تحب، وتنصح، وتربي، وتحسن؛ لكن يبقى قلب كل إنسان بينه وبين ربه. والحب نفسه يحتاج إلى عبودية حتى لا يتحول من رحمة إلى رغبة في الامتلاك.

وقد يكون أضعف من في البيت هو الطفل الذي يحبك ولا يملك أن يوازن نبرتك بنبرة، ولا قرارك بقرار. قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرةً من الولد

ما قبّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**». (رواه البخاري: 5997، ومسلم: 2318). في مشهد صغير تدخل الرحمة إلى العلاقة من جهة من يملك أكثر ومن يملك أقل. ليست القدرة على الطفل إذنًا بالجفاء، ولا القرب سببًا لهوان قلبه؛ بل قد يكون أول ما تحتاجه القوة داخل المحبة أن تبقى تحت رحمة الله.

ولهذا يستطيع القرب كله أن يصير طريقًا إلى الله: خدمة في بيت، ولقمة، ومعروف يبقى مع وجود ما تكره، و«لا» تقولها لله من غير أن تسقط المعروف، ويد تمسك بها والدًا إذا ضعف، ورحم تصلها ولو لم تسبقك. لا تحتاج أن تخرج من الحب حتى تعبد الله؛ تحتاج أن يدخل الله في الحب فيرتبه ويزكيه.

وهذا هو السؤال الذي يبقى بعد هذا كله: **ما النسخة التي يراها مني أقرب الناس حين تسقط الصورة؟** ليس المطلوب بيتًا بلا نقص، ولا زوجًا ولا والدًا ولا ابنًا لا يخطئ؛ المطلوب أن لا يكون إيمانك زائرًا يقف عند الباب.

لكن العلاقة قد يدخلها عنصر آخر يغيّر وجه الموقف كله: **القوة.**

قد يكون الإنسان قريبًا لكنه تحت يدك، وقد يكون غريبًا وبيده رزقك أو قرارك، وقد تستطيع أنت أن تؤذيه ولا يستطيع أن يدفعك، أو تخاف أنت منه ولا تملك ما يملك. وهنا لن يكون السؤال فقط: كيف تحب؟ بل: **كيف تعبد الله حين تكون أقوى؟ وكيف تبقى له حين تكون أضعف؟**

حين تختل موازين القوة

القوة تدخل العلاقات من أبواب كثيرة. قد يملك أحد الطرفين القرار، أو المال، أو العلم، أو السن، أو القدرة على الكلام، أو حاجة الآخر إليه. وقد لا يملك شيئًا من ذلك كله، وإنما يملك لحظته: يستطيع الآن أن يفعل شيئًا لا يستطيع الطرف الآخر أن يدفعه.

وهنا يظهر الميزان حين تميل الكفة.

حين لا يبقى بينك وبين الظلم إلا الله

يكثر في القرآن حضور إنسان لا يملك غالبًا أن يحمي حقه بنفسه: اليتيم.

مالٌ له، لكن اليد التي تدافع عنه ضعيفة. وحقٌّ له، لكن صاحبه قد لا يعرف كيف يصل إليه، ولا كيف يقف في وجه الكبير الذي يتصرف فيه. ولهذا لا يكتفي القرآن بأن ينهى عن أكل ماله، بل يحيط الاقتراب نفسه بسياج:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: 152].

ليست قدرة الكبير على التصرّف إذنًا. وليست قلة حيلة الصغير مساحةً يتسع فيها الهوى. السؤال ليس: ماذا أستطيع أن أفعل ولا يمنعني؟ بل: ماذا أذن الله لي أن أفعل؟

ثم ينقل القرآن الامتحان من المال إلى الطريقة التي يُعامل بها الضعيف:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 9–10].

اليتيم لا يُقهر، والسائل لا يُنهر. كلاهما جاءك من جهة نقصت فيها قدرته على الدفع، فجاء أمر الله إلى الموضع الذي كان يمكن لقوتك أن تنفلت فيه.

وهنا ينكشف معنى دقيق: وجود من يردعك من الناس قد يحفظك من بعض ظلمك، لكن تمام العبودية يظهر حين يغيب هذا الردع. حين يستطيع الطرف الآخر أن يشكو، تحسب حساب شكواه؛ وحين يستطيع أن يرد، تحسب حساب رده. أما إذا لم يملك شيئًا من ذلك، فقد لا يبقى بينك وبين الظلم إلا شيء واحد: أنك عبد لله.

«لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه»

وتأتي السنة بمشهد لا يشرح هذه الحقيقة من بعيد، بل يضعها في اللحظة نفسها التي تعمل فيها القوة.

قال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: «**كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: اعلم أبا مسعود، لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه**». (رواه مسلم: 1659).

تكاد ترى اليد مرفوعة، والغلام لا يملك أن يوازن القوة بقوة. وفي داخل المشهد يبدو أبو مسعود هو القادر.

ثم جاءت كلمة النبي ﷺ، فلم تنكر قدرته؛ رفعت بصره فوقها:

«**لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه**».

ولهذا يكون أخطر وقت للقوة هو الوقت الذي لا تحتاج فيه إلى استعمالها لتثبت أنها موجودة. يكفي أن تعرف أن من أمامك لا يستطيع أن يدفعك، فيأتيك السؤال الذي لا يراه الناس: ماذا ستفعل بقدرةٍ أعطاك الله إياها، وهو أقدر عليك منك على من تحت يدك؟

القوة التي لا تحمل اسمها

وقد يقرأ الإنسان هذا كله وهو مطمئن؛ لأنه لا يملك غلامًا، ولا مال يتيم، ولا منصبًا كبيرًا. لكن القوة أوسع من صورتها الرسمية.

قد تكون أفصحَ من الذي أمامك، فتستطيع أن تجعل تردده هزيمةً في مجلس. وقد تكون أعلمَ منه، فتستطيع أن تعلّمه، وتستطيع أن تجعله يندم على السؤال. وقد تكون أكبر سنًّا في علاقة اعتاد الأصغر فيها ألا يعترض. وقد تحتاج إلى الآخر أقل مما يحتاج إليك، فتدخل قوّتك من باب حاجته. وقد تملك القدرة على رواية القصة أمام الناس، بينما لا يملك هو أن يصنع لنفسه الرواية التي يملكها لسانك ومكانتك.

القوة هنا لا تحمل بطاقةً باسمها، ولذلك قد تكون أشد خفاءً على صاحبها.

السؤال الكاشف ليس: هل أنا صاحب سلطة؟ بل: ما الذي أستطيع أن أفعله بهذا الإنسان لأنه لا يستطيع أن يفعل مثله بي؟

وهناك سؤال آخر لا يقل كشفًا: **ما الذي تصنعه قوتي أنا في الذي أمامي؟** قد ترى موظفًا يتلعثم أمامك فتعد تلعثمه ضعف حجة، أو طالبًا يصمت فتظن أنه لا يعرف، أو طفلًا يخفي خطأه فتقرأ الخوف مكرًا. وربما كان بعض ما تراه أثرًا لهيبتك أنت في المشهد.

صاحب القوة لا يحتاج فقط أن يضبط ما يفعله؛ يحتاج أحيانًا أن يتعلم كيف يقرأ ردود الناس عليه. من لا يستطيع أن يعترضك بسهولة قد يوافقك أكثر مما يقتنع، ومن يخشى خسارة حاجته إليك قد يصمت عن شيء كان سيقوله لو شعر بالأمان.

لا تجعل خوف الإنسان منك بينةً عليه. وافتح له — ما استطعت — مساحةً يستطيع فيها أن يقول الحقيقة من غير أن يدفع ثمنها كرامةً أو رزقًا أو أمانًا.

قد لا تأخذ منه مالًا، ولكنك تأخذ من كرامته. وقد لا تمنعه حقًا مكتوبًا، ولكنك تجعله يدفع ثمن حاجته إليك انكسارًا زائدًا لم يأمرك الله به. وقد يكون لك أصلٌ صحيح في التعليم أو التصحيح أو الإدارة، ثم تحمل هذا الأصل من الاستعلاء أكثر مما يحتاج.

فالقوة لا تفسد فقط حين تستولي على ما ليس لك؛ قد تفسد حين تضيف إلى حقك شيئًا لم يعطك الله إياه.

حين يصبح الجاه ميزانًا للقيمة

ومن صور اختلال القوة أن يبدأ الإنسان يزن الناس بما يملكونه عند الناس.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52].

وقال سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

الميزان البشري يرى الجاه، والهيئة، والمنفعة، وما يضيفه حضور الإنسان إلى المجلس. والقرآن يلفت النظر إلى ما لا تراه تلك الموازين: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ليس معنى الآيتين أن تسقط الفروق الوظيفية بين الناس، ولا أن تصبح كل المواقع سواء؛ لكنهما تكسران في القلب وهمًا أخطر: أن يكون ضعف موقع الإنسان عند الخلق دليلًا على ضعف قيمته.

قد يكون الذي لا يفتح لك بابًا من أبواب الدنيا أقرب إلى الله ممن تُفتح له الأبواب. وقد يكون الذي لا تحتاج إليه هو الذي ينبغي أن تخاف الله فيه أكثر؛ لأن نفسك لا تجد مصلحةً تحملها على إكرامه.

الرحمة لا تلغي العزم

وقد يتوهم صاحب المسؤولية أن هذا كله يصلح للأفراد في لحظات اللطف، أما مواقع القيادة فلا تقوم إلا بالخشونة التي تحسم.

فيأتي القرآن إلى موضع من أشد مواضع القيادة ألمًا: ما بعد أُحد.

قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

في الآية رحمة، وعفو، واستغفار، ومشاورة؛ ثم في الآية نفسها عزم.

لم يضع القرآن القائد بين طريقين: إما رحيمًا ضعيف القرار، وإما حازمًا غليظ القلب. الرحمة لا تمحو العزم، والعزم لا يحتاج إلى الفظاظة حتى يكون عزمًا.

والبداية أعمق من ذلك كله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

حتى لينك حين تملك أن تقسو رحمةً من الله بك وبمن تحت قدرتك. فلا تنظر إلى ضبط نفسك إعجابًا بها؛ احمد الذي لم يترك قوتك لهواك.

القوة في القرآن لا تُلغى. بل يُتعبَّد لله بضبط استعمالها وفق شرعه.

وحين تكون أنت الأضعف

ثم تنقلب الكفة.

لا تقرأ ما سبق طويلًا وأنت تتخيل نفسك دائمًا صاحب اليد العليا. قد تكون أنت الذي ينتظر القرار، أو يخشى صاحب النفوذ، أو لا يحسن الكلام حين يشتد الموقف، أو يعرف أن كلمة الطرف الآخر تستطيع أن تترك في حياته أثرًا لا يستطيع هو أن يترك مثله.

والقرآن لا يبني هذا الطرف ببطولة مصطنعة، كأن المؤمن لا يشعر بالخوف.

أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، فقال:

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43-44].

فقالا:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: 45].

الخوف هنا لم يُخفَ تحت كلام عن الشجاعة. قالاه لربهما كما هو: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾.

لكن تأمل ما لم يحدث أيضًا: لم يصبح الخوف هو الذي يكتب التكليف.

كان الأمر قبل ذكر الخوف: ﴿اذْهَبَا﴾. وكان فيه: ﴿فَقُولَا﴾. فلما ظهر الخوف لم يُلغ الأمر، وإنما جاء ما يسنده:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

المعية هنا لم تأت بدل ﴿اذْهَبَا﴾؛ جاءت لتحملهما في طريق ﴿اذْهَبَا﴾.

ولم يقل الله لهما: ما دمتما تخافان فقد سقط عنكما ما كلفتكما به. بل جعل الخوف البشري قائمًا، وجعل فوقه معيةً تسمع وترى.

وهنا تكتمل عبودية الطرف الأضعف: ليست فقط أن يهدأ قلبه لأن الله معه؛ بل أن يبقى لله وهو خائف، وأن لا يمنح خوفه حق كتابة التكليف بدل الله.

«إنني معكما أسمع وأرى»

من أشد ما يثقل على الأضعف أن يشعر أن القوي يستطيع أن يملأ المشهد كله.

صوته أعلى، وروايته أسرع وصولًا، وقراره أمضى، وربما لا يكون في الغرفة من يشهد ما جرى.

فجاءت الكلمات الأربع:

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

الله يسمع ما سيقوله، وما سيقولانه. ويرى ما يصنع، وما يقع عليهما. لا توجد غرفة يغيب عنها، ولا قوة يخرج صاحبها من ملكه.

وهذه المعية ليست تخديراً للعبد حتى يقبل كل شيء ويسكن. في المشهد نفسه بعد ذلك قول واضح لا يذوب أمام فرعون:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47].

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾: حقيقة لا تختبئ.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾: طلب واضح أمام من يخافان بطشه.

فاللين في قولهما لم يكن ذوباناً في المضمون، والخوف لم يكن تنازلاً عن التكليف.

وهنا ترى أن القول الحسن لا يختفي حين يشتد المقام. ليس معناه كلاماً بلا موقف؛ فقد كان القول ليناً والطَّلب واضحاً. قد يختلف ما يلزم أن تقوله للقوي عما تقوله في مجلس وُدّ، لكن لسانك لا يحتاج إلى الفحش حتى يثبت، ولا إلى الذوبان حتى يكون حسناً. **تتغير نبرة المقام، ويبقى اللسان لله.**

وهذه القصة مقام نبوةٍ وتكليف خاص، فلا تُحوَّل إلى قاعدة ساذجة تقول لكل خائف: واجه كل قوي بنفس الصورة؛ فالمقامات تختلف، وقد يكون تكليف العبد في موقف أن يتكلم، وفي آخر أن يتريث، أو يستعين، أو يأخذ بسبب يحميه. لكن المشهد يكشف أصلاً لا يتغير: ضعفك لا يصير مشرِّعاً لك، كما أن قوة غيرك لا تصير مشرِّعة عليك.

قد تخاف وتبقى لله.

قد يخرج الإنسان من موقف مع من هو أقوى منه، ثم يلوم نفسه على اضطراب صوته أو ثقل الخطوة عليه، كأن الإيمان لا يكتمل إلا إذا لم يشعر بالخوف أصلاً.

لكن موسى وهارون قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾.

ليس كل خوف ذلًّا. الذل أن يصبح المخلوق في قلبك صاحب الحق في أن يحل لك ويحرم، أو أن يدفعك خوفه إلى ترك ما أوجب الله عليك في مقامك.

وفي الجهة الأخرى، ليس كل ارتفاع صوت ثباتاً. موسى مأمور أمام فرعون نفسه بـ ﴿قَوْلًا لَيِّنًا﴾. فلا يحتاج الضعيف إلى الفحش حتى يثبت لنفسه أنه قوي، كما لا يحتاج إلى المداهنة حتى ينجو.

قد يكون ثباتك أن تقول كلمة بهدوء. وقد يكون أن تطلب عونًا. وقد يكون أن تنتظر حتى تستطيع الفعل الصحيح. الذي يحدد ذلك ليس شعورك بالإهانة ولا رغبتك في إثبات نفسك، بل ما أمرك الله به في مقامك.

وهكذا لا يكون الإيمان وعدًا بأن تختفي رهبة البشر من نفسك؛ بل أن لا تتحول هذه الرهبة إلى رب صغير يكتب لك ما تفعل.

قوةٌ معارة

ثم لا تنس وأنت في جهة القدرة أن القوة التي بين يديك ليست شيئًا خرجت به من حد العبودية.

أعطاك الله علمًا لا يعرفه غيرك، أو كلمةً مسموعة، أو مالًا، أو سنًّا، أو حاجةً في قلب إنسان، أو موقعًا يمر الناس من خلاله. هذه كلها أسباب أودعها في يدك، لا أجزاء من ذاتك يثبت لك بها حق زائد على خلقه.

وقد عرفت أنت نفسك صورًا من الحاجة: كنت صغيرًا فحُملت، وجاهلًا فعُلّمت، ومحتاجًا فسُدّ بعض احتياجك، وخائفًا فسكنت بكلمة أو حضور. ليس المقصود أن ترحم لأنك تخاف فقط أن تدور الأيام عليك؛ فهذه حكمة قد تصيب وقد لا تصيب. المقصود أن تعرف أن ما في يدك اليوم عطية، وأن شكر العطية أن لا تجعلها بابًا للاستعلاء على عباد واهبها.

وقد تتبدل المواقع غدًا، لكن هذا ليس أصل الرحمة. أصلها أنك عبد أُعطي قدرة، وستبقى عبدًا وهو قادر عليك.

بين قدرتين

وهنا تلتقي جهتا القوة أخيرًا.

إذا كنت أقوى، فاسمع قول النبي ﷺ:

«لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه».

وإذا كنت أضعف، فاسمع قول الله:

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

الأولى ترد القوي إلى قدرة فوق قدرته، والثانية ترد الضعيف إلى معية فوق خوفه؛ فلا تستعبد هذا قوته، ولا ذاك قدرة المخلوق.

لكن اختلال القوة قد لا يبقى قدرةً معلقة.

قد تُستعمل القوة، وتقع الكلمة، وينزل الفعل، ويصير في القلب ألم لم يكن قبل ذلك. عندها يتغير المقام مرة أخرى: لم تعد المسألة فقط كيف تكون مع من هو أقوى أو أضعف؛ لقد حدث أذى.

فكيف يعبد الإنسان ربَّه بعد أن يؤذيه الناس، من غير أن يسكت عن حق أعطاه الله إياه، ومن غير أن يجعل من آذاه هو الذي يكتب له من يكون؟

حين يؤذيك الناس

قيلت الكلمة. وأُخذ ما ليس له. وخُذلت في موضع كنت تنتظر فيه الوفاء. أو خرج من إنسان إلى قلبك ما لم يعد احتمالًا تستطيع أن تنظر إليه من بعيد.

والأذى إذا وقع لا يبقى خارجك. يدخل إلى الصدر، ويأخذ معه الغضب، والأسئلة، والرغبة في أن تعيد الصورة إلى نصابها. وقد تكتشف في نفسك بعده كلمات لم تكن تقولها، وشدة لم تكن تعرفها، ويصبح الذي آذاك حاضرًا في ذهنك أكثر مما يستحق.

وهنا يتغير المقام فعلًا. لم يعد هذا الإنسان كما كان قبل أن يؤذيك؛ قد صار لك حق لم يكن لك، وقد يجوز لك بعد الظلم ما لم يكن جائزًا قبله. لكن شيئًا واحدًا لا يتغير: الذي آذاك لا يصعد بأذاه إلى موضع الله فيكتب لك من تكون.

لقد حرّك المشهد، فلا تجعله يملك قلبك بعد أن أصابك.

للمظلوم صوت

من أسهل الأخلاق حين يكون الألم في جسد غيرك أن تعطيه موعظة عالية: اصبر، سامح، لا تحمل في قلبك، كن أفضل منه.

وقد يكون كل واحد من هذه المعاني عبادة عظيمة في موضعه، لكن القرآن لا يبدأ هكذا.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148].

الأصل أن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول، ثم يفتح داخل هذا الأصل موضعًا للمظلوم: ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾.

لا يسوي القرآن بين من ابتدأ السوء ومن وقع عليه، ولا يجعل حسن الخلق ستارًا يغطى به الظلم حتى يبدو كل كلام عنه نقصًا في صاحبه. للمظلوم أن يكون له صوت.

وهذا الترتيب مهم. فالعفو الذي يأتي بعد معرفة الحق عفو، أما أن يطلب من إنسان أن يعفو قبل أن يُسمح له حتى أن يعرف أن له حقًا فقد يتحول إلى اسم جميل لمحو مظلمته.

ثم تختم الآية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

الله سمع ما قيل، وعلم ما وقع. لا يحتاج المظلوم أن يصرخ حتى يبلغ علم الله، ولا يستطيع الظالم أن يغيّر الحقيقة عنده لأنه نجح في إسكات رواية البشر.

ولكن الآية التي أعطت المظلوم صوتًا لم تعطِه كل صوت. لك أن تشتكي إلى من يستطيع أن ينصفك، وأن تبين ما وقع، وتدفع عن نفسك تهمة، وتحذر من ضرر بقدره؛ لكن صحة المظلمة لا تصحح كل طريقة في عرضها، ولا تجعل التشفي حقًا.

فالسؤال ليس فقط: ماذا فعل بي؟ بل: ماذا أذن الله لي أن أفعل بما فعل بي؟

الغضب موجود... لكنه لا يملك الحكم

ومن صور التدين القاسي على النفس أن يظن الإنسان أن صلاح قلبه يقتضي ألا يغضب أصلًا، كأن المؤمن إذا آذاه أحد يجب أن تمر الإساءة عليه ولا يتحرك فيه شيء.

لكن الله وصف أهل التقوى فقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

لم يقل: الذين لا غيظ لهم. قال: ﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

هناك غيظ موجود، ثم عبادة تقع عليه.

ولا تنته الآية عند ضبط النفس والعفو؛ تختم بما يشد القلب إلى ما هو أعلى من كسب الموقف: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قد تكظم غيظًا لا يراه أحد، أو تعفو حيث يصلح العفو، فيكون وراء هذا الخلق شيء أعظم من هدوء العلاقة: أن تدخل فيمن يحبهم الله.

وقال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». (رواه البخاري: 6114، ومسلم: 2609).

ليس الحديث في رجل لا يغضب، بل في رجل تحركت فيه القوة التي تدفعه إلى الرد، ثم لم يصبح غضبه سيده.

وهنا فرق ينبغي أن يبقى واضحًا: صدق الشعور لا يعني سيادة الشعور. قد يكون غضبك مفهومًا، بل قد يكون سببه صحيحًا، لكن الغضب لا يعرف وحده حدود الحق. هو يقول: رد الآن. والوحي يقول: انظر أولًا ماذا ثبت لك، وما حد ما يجوز لك، وأين تتحول وأنت ترد من مظلوم إلى ظالم.

قد يبدأ الإنسان مظلومًا، ثم لا يبقى كذلك في كل ما يفعل بعد الظلم.

حق في الانتصار... وسقف في الرد

ومن أوسع المواضع التي يربي فيها القرآن المظلوم قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 39-43].

لا يختصر القرآن المظلوم في جواب واحد. والأهم أن الانتصار هنا لم يأت في صيغة اعتذار عن منزلة ناقصة؛ بل وصف الله قومًا من المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ثم رفع الحرج عنهم صراحة: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾. فالانتصار المنضبط ليس ضد التقوى، ولا درجةً دنيا لا بد أن يترقى منها كل مظلوم إلى العفو. قد يكون هو جواب العبودية في مقامه.

ليست العبادة أن تحفظ كلمة واحدة ثم تضعها على كل جرح. قد يكون المطلوب أن تدفع الظلم، وأن تطلب حقك واضحًا، وأن تمنع المعتدي من أن يتمادى؛ وقد يكون العفو في مقام آخر هو الأرفع. ليس الأتقى دائمًا هو الذي يتنازل، كما أن الأقوى ليس دائمًا هو الذي ينتصر لنفسه. التقوى أن لا تختار الصورة التي تحبها أنت، بل التي يريدها الله في مقامك.

والكلمة التي تحرس الرد من أن يتحول إلى ظلم هي: ﴿مِثْلُهَا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126].

النفس حين تتألم لا تحب السقف. ترى ما فعل الآخر، ثم ترى ما تستطيع أن تفعله. لكن الله لا يجعل مقدار ألمك بابًا مفتوحًا لمقدار ردك.

آذاك في مال، فلا يفتح لك عرضه. أساء إليك في عمل، فلا تصبح حياته كلها مباحة لتبحث فيها عما يوجعه. قال كلمة أمام اثنين، فلا يصير من حقك أن تبني انتقامًا يسمعه مائتان.

وقد لا تملك في كل مسألة أن تقدر هذا الحد بنفسك؛ لبعض الحقوق أحكام وجهات تفصل فيها. لكن المعنى الذي يحتاجه القلب قبل التفاصيل واضح: كونك مظلومًا لا يعطيك حقًا غير محدود.

العفو بعد ثبوت الحق

بعد أن أثبت القرآن للمظلوم صوته، وحقه في الانتصار، وحد الرد، يستطيع أن يفتح له باب العفو من غير أن يبدو العفو محوًا للحق.

قال رسول الله ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**». (رواه مسلم: 2588).

النفس قد ترى العفو نقصًا: كان يمكنني أن أرد فلم أرد، وكان يمكنني أن أجعله يذوق فتركته. فتأتي السنة فتقلب الحساب: «**إلا عزًّا**».

العفو ليس عجزًا حين تملكه، وليس ذلًا حين تختاره لله. لكنه كذلك ليس شعارًا يوضع على كل مقام.

فالقرآن نفسه أثبت الانتصار، وربط العفو بالإصلاح: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ**﴾.

قد يكون العفو أرفع لأنه يطفئ شرًا ويصلح قلبًا وعلاقة، وقد يكون في صورة أخرى هربًا من واجب أو فتحًا لباب ضرر يتكرر. ليس اسمه وحده هو الذي يحدد منزلته؛ المقام والمآل وأمر الله هي التي تحددها.

ولهذا كان من هدي النبي ﷺ في شأن نفسه عفو عظيم، وكانت عائشة رضي الله عنها تصفه بأنه لا ينتقم لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله كان للمقام شأن آخر. (رواه البخاري: 6853، ومسلم: 2328).

فالإنسان لا يملك كل شيء حتى يعفو عنه. وقد يكون ما أغضبك حقًا شخصيًا لك، وقد يتعلق بحق غيرك أو أمانة لا تملك إسقاطها؛ فليس كل ما مرّ بيدك تملك أن تعفو عنه. أما إذا كان الحق لك، فيُفتح أمامك باب آخر: ما الذي يحدث لقلبك حين تستطيع أن تتركه لله؟

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

بلغ الأذى بيت أبي بكر رضي الله عنه في أحب الناس إليه. وكان مسطح بن أثاثة ممن خاض في حديث الإفك، وكان أبو بكر ينفق عليه لقرابته وفقره. فلما وقع ما وقع حلف ألا ينفق عليه بعد ذلك.

لو بقي المشهد بين أبي بكر ومسطح فقط، لكان للنفس حساب مفهوم: أحسنت إليه، فأصابني في أحب الناس إلي.

لكن الله أدخل على المشهد حسابًا آخر:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22].

وتأمل شيئًا آخر في طريقة القرآن في النظر إلى مسطح نفسه. لم يسمح لذنبه أن يصير اسمه الوحيد في المشهد، أبقى أمام أبي بكر أوصافًا أخرى: ﴿أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أخطأ خطأً عظيمًا، نعم، لكنه لم يتحول في خطاب الوحي إلى «المسيء» فقط.

وهذه تربية دقيقة للقلب: قد يثبت عليك فعل إنسان، ويثبت معه أن له قرابةً أو فقرًا أو سابقة خير أو ضعفًا أو حقًا آخر. العدل لا يطلب منك أن تمحو الخطأ، يطلب أن لا تجعل الخطأ يمحو الإنسان كله.

إنما نقل نظره من ذنب إنسان في حقه إلى حاجته هو إلى ربه:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

أنت مجروح، نعم. لكنك في الوقت نفسه عبد مذنب يرجو المغفرة.

وأنت قادر على أن تحبس خيرًا كان يصل إلى من آذاك، لكنك محتاج إلى خير أعظم يصل إليك من الله.

قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة على مسطح.

وقد يفتح العفو، بعد أن يهدأ النزف، بابًا لأن ترى الإنسان أوسع من لحظة أذاه. قد يبقى خطؤه خطأً، لكن صورته في قلبك لا تعود محصورةً في الجرح وحده؛ يعود إنسانًا، لا وحشًا مصنوعًا من لحظة واحدة.

وهنا لا يكون العفو تنازلًا بين إنسانين فقط؛ يصير طريقًا بين العبد وربه.

لا تجعل السيئة تنسخك في صورتها

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 34-35].

لا تلغي الآية بقية أحكام المقامات، ولا تجعل كل أذى بابًا لإبقاء العلاقة كما كانت. لكنها تكشف شيئًا آخر: ليس لازمًا أن تكون استجابتك نسخة من إساءة خصمك.

هو وضع في المشهد سوءًا، فلا يلزم أن يكون ما يخرج منك نسخة منه.

وقد يكون الدفع بالأحسن كلمةً تضبطها، أو فعلًا يوقف الشر من غير تشفٍّ، أو عفوًا يصلح. ولذلك قال الله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

المسيء قد يغيّر مقام العلاقة، لكنه لا ينبغي أن يكتب أخلاقك الجديدة.

ومع ذلك، لا يعني العفو ولا دفع السيئة بالأحسن أن يبقى كل إنسان في الموضع نفسه منك.

قد تسقط الثقة ولا يسقط العدل، وقد يضيق قدر المخالطة من غير تشفٍّ، وقد تغفر ولا تعيد الثقة. فالمسافة التي تحفظك من ضرر يتكرر ليست هي المسافة التي تتغذى كل صباح من رغبة في العقوبة؛ كما أن بقاء العلاقة ليس فضيلة لمجرد بقائها.

وهذه من المواضع التي يظهر فيها معنى المقام بوضوح: صلاح القلب لا يعني إلغاء البصيرة.

حين لا تملك تغيير المشهد

ويبقى مقام أشد من أن تختار بين الرد والعفو: أن لا تملك الآن أن تحسم المشهد أصلًا.

قد تكون في ظرف لا تستطيع مغادرته فورًا. أو يكون رفع الضرر ممكنًا بعد زمن لا الآن. أو تكون قد أخذت بما تستطيع من الأسباب، وبقي من الحال ما لا تملك تغييره.

هنا يأتي الصبر بمعناه الصحيح.

ليس الصبر أن تترك باب نجاة مشروعًا تستطيع أن تدخله، ولا أن يمنعك أحد باسم الدين من الاستغاثة أو طلب الحماية أو دفع ضرر يمكنك دفعه.

لكن ماذا إذا انتهت قدرتك عند حد، وبقي شيء لم تستطع رفعه؟

قال الله تعالى بعد قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: 126-127].

قف عند آخرها:

﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

الصبر هنا ليس بطولة نفسية يقول فيها الإنسان لنفسه: سأكون أصلب من الألم.

هو افتقار.

يا رب، أخذت بما أقدر عليه، وبقي ما لا أقدر عليه؛ فلا تدع ما لا أملك تغييره يغيرني عنك.

قد لا تستطيع إزالة المشهد اليوم، لكنك لا تريد له أن يزيل من قلبك الصلاة، أو الصدق، أو الرحمة، أو رجاء الله، أو حسن الظن به. وإذا فتح الله لك غدًا سببًا لم يكن في يدك اليوم أخذت به؛ فالصبر لا يعادي السبب، والتوكل لا يعبد العجز.

وفي هذا المقام قد تكون العبادة أن يبقى قلبك لله في مساحة انتهت عندها قدرتك.

وهكذا لا يخرج المظلوم من هذا الباب بوصية واحدة اسمها «تنازل». له صوت، وله أن يدفع عن نفسه، وله أن يطلب حقه، والرد له حد، والعفو باب فضل إذا صلح، والمسافة قد تكون حكمة، والصبر بالله عبادة حين تنتهي الأسباب التي يملكها.

وفي كل هذه الصور يبقى الخطر واحدًا: أن يأخذ الذي آذاك منك شيئًا لم يمد يده إليه أصلًا؛ أن يأخذ منك عبوديتك لله.

بعد هذا كله تبقى كلمة ينبغي أن نقف عندها قبل أن نمضي: حقك.

قلنا إن للمظلوم حقًا، وإنه قد يستوفيه أو يعفو عنه في موضع العفو. لكن هل كل حق تمر به يدك حقك أنت؟

ماذا إذا كان المال مال غيرك؟ أو كانت الأمانة تحت يدك؟ أو كان الحق لقاصر لا يستطيع المطالبة به؟ أو كنت شاهدًا والحقيقة ليست ملكًا لك حتى تخفيها مجاملة؟ أو كنت صاحب عمل وفي ذمتك أجر إنسان؟

هنا لا يعود السؤال فقط: هل أنا كريم إذا تركت؟ وهل أنا قاس إذا استوفيت؟

يأتي سؤال أسبق:

لمن هذا الحق أصلًا؟

حين يكون بينكم حق — ماذا تملك وماذا لا تملك؟

ليست كل العلاقات مشاعر. قد يكون بينك وبين إنسان مال، أو عقد، أو أجر، أو دين، أو أمانة، أو كلمة شهادة يتوقف عليها حق.

وقد لا يرتفع في هذه المواطن صوت، ولا تنكسر علاقة، ولا يشعر أحد أن مشهدًا أخلاقيًا كبيرًا يجري. ومع ذلك قد تقع في رقم صغير بين اثنين عبادة كاملة، أو مظلمة كاملة.

فاتورة لم تدفع. دين حل أجله. أجر انتهى عمل صاحبه. عيب في سلعة عرفته ولم يعرفه المشتري. بند في عقد تستطيع أن تمرره لأن الطرف الآخر لم ينتبه. حقيقة عندك يضيع بسكوتك نصيب غائب.

هنا لا تحتاج العبادة إلى مشهد كبير. قد تقع في تحويل مالي، أو توقيع، أو كلمة: نعم، هذا له.

والسؤال السابق على «أعفو أم أستوفي؟» هو:

لمن الحق؟

لأن العاطفة الصالحة لا تنقل الملكية، وحسن النية لا يجعل ما ليس لك ملكًا لك، والكرم بمال غيرك ليس كرمًا.

قبل أن تسأل: أترك أم أستوفي؟

قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40].

هنا نقف عند كلمة: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾؛ فالعفو يملكه صاحب الحق.

لهذا لا بد قبل أن تحب صورة العفو أن تعرف هل هذا الشيء لك أصلًا حتى تتركه.

قد يكون الحق شخصيًا لك، فتملك في موضعه أن تطالب أو تتنازل. وقد تكون مجرد أمين عليه، فلا تحول الأمانة إلى مساحة لكرمك الشخصي. وقد تكون وليًا على مال لا تملكه، أو مسؤولًا عن حق جهة أو جماعة، أو حامل شهادة يتعلق بها حق إنسان آخر.

في هذه المواطن قد يقول لك قلبك: سامح. وتقول الأمانة: لست أنت صاحب الشيء الذي تريد أن تسامح فيه.

فأول فضائل باب الحقوق ليست التنازل؛ إنها أن تعرف حدود يدك.

الحق لا يسقط لأن صاحبه أساء الطلب

كان لرجل على رسول الله ﷺ حق، فجاء يتقاضاه فأغلظ له، فهمّ به الصحابة. كان يمكن لهيبة المجلس، ولمحبة الصحابة للنبي ﷺ، أن تجعل غلظة الرجل هي المشهد كله؛ لكن النبي ﷺ أعاد الحق إلى مكانه فقال: «**إن لصاحب الحق مقالًا**» (رواه البخاري: 2609، ومسلم: 1601). ثم أمر أن يُقضى حقه، فلما لم يجدوا إلا خيرًا منه أعطاه إياه، وقال ﷺ: «**خيركم أحسنكم قضاء**». (رواه البخاري: 2609، ومسلم: 1601).

هنا اجتمع أمران ولم يسمح الوحي أن يبتلع أحدهما الآخر: الرجل أخطأ حين أغلظ، والرجل صاحب حق.

لم تتحول غلظته إلى صك يسقط ما له، ولم تتحول منزلة النبي ﷺ إلى حاجز يمنعه من المطالبة.

وكم تميل النفس إلى العكس: يطالب موظف بمستحقه بطريقة لا تعجبك، فيتحول الحديث من الأجر إلى أدبه؛ أو يكرر دائن طلب دينه، فتتضخم طريقة المطالبة حتى تكاد تمحو أصل الحق.

هذا المشهد لا يعلّم صاحب الحق أن يغلظ؛ لكنه يقرر معنى مهمًا: **ليس عليك أن تعتذر عن أصل مطالبتك لمجرد أنك تطالب.** الحق إذا ثبت لا يصير دناءةً لأنك ذكّرت به.

قد تطلب حقك وأنت لله، كما قد تتركه وأنت لله. وقد يكون طلبه في مقام عبادةً أصدق من تنازل تصنعه خشية الناس أو طلبًا لصورة «المتسامح».

حين تكون أنت الذي عليه الحق

أسهل على النفس أن ترى ما لها من أن ترى ما عليها.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**مَطْلُ الغني ظلم**». (رواه البخاري: 2287، ومسلم: 1564).

لم يسمه تأخيرًا مزعجًا ما دام صاحبه قادرًا؛ سماه ظلمًا.

قد يكون المال في حسابك، وتستطيع الأداء، لكنك تعرف أن الطرف الآخر سيصبر، أو أنه أضعف تفاوضًا، أو أنه يحتاج إلى العلاقة فلا يريد أن يضغط عليك. فتتحول حاجته أو حياؤه إلى مدة إضافية تأخذها من حقه من غير رضاه.

وكم تختبئ المظالم خلف كلمة صغيرة: غدًا.

غدًا أحول. غدًا أنهي. غدًا أراجع.

ثم يصبح الغد أسبوعًا، والأسبوع شهرًا، وصاحب الحق يطرق بابًا لا ينبغي أن يحتاج إلى طرقه أصلًا.

ليس كل تأخر ظلمًا؛ قد يعجز المدين، وقد يقع ما يعذره. لكن الحديث يتكلم عن القادر الذي يمطل، حتى لا تختبئ القدرة خلف الأعذار التي تصنعها النفس.

ميزانان في قلب واحد

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1-3].

صورة قصيرة تكشف مرضًا واسعًا: إذا كان الحق لنا ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، وإذا صار علينا ﴿يُخْسِرُونَ﴾.

وهذا المعنى يتكرر في صور حديثة كثيرة وإن لم تكن كلها من التطفيف الفقهي نفسه: تطلب من العامل الساعة كاملة ثم ترى تأخير أجره يسيرًا، تستوفي من المتعاقد كل بند ثم تقرأ ما عليك بروح أوسع، تعد وقتك ثمينًا ولا ترى من وقت الآخرين ما تراه من وقتك.

الخطر ليس فقط في نقص المال. الخطر أن يكون في القلب ميزانان: واحد حين آخذ، وآخر حين أعطي.

والعبودية تريد ميزانًا لا يتبدل لأن جهة المصلحة تبدلت.

الكتابة قد تحفظ القلوب

ومن العبارات التي أضاعت حقوقًا كثيرة: «ألا نثق بي؟»، كأن التوثيق إهانة للمحبة.

لكن أطول آية في القرآن جاءت في الدين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282].

ثم يقول في الآية نفسها: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾. فالورقة لا تغني عن التقوى، والتقوى لا تلغي الورقة.

كم من علاقة بدأت بصفاء ثم أفسدها ترك التفاصيل معلقة: تمضي السنوات، وتختلف الذاكرة، ويدخل أناس لم يشهدوا الاتفاق الأول.

فتصبح الورقة التي خافوا أن تفسد القلوب شيئًا كان يمكن أن يحفظها.

أحيانًا يكون من حسن العلاقة ألا تحملها ما لا تحتمل.

وإذا قامت الثقة من غير توثيق، بقي الحارس نفسه:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: 283].

وحين تكون الحقيقة عندك وحدك، لا يصنع غياب الدليل ملكيةً جديدة؛ هنا يكفي أن الله يعلم.

أما المعسر فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280].

الدين باق، لكن العسر دخل في التكليف؛ فصار الإنظار واجب المقام، وفوقه باب فضل: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وهنا يعلمك باب الحقوق نفسه أن تنظر إلى حال الإنسان قبل أن تفسر فعله. التأخر واحد في ظاهر الساعة، لكن وراءه قد يكون قادر يماطل، وقد يكون معسرًا لا يجد. لو قرأنا السلوك وحده من غير حال صاحبه، لسمّينا الاثنين باسم واحد وأخطأنا الحكم على أحدهما.

وهذه قاعدة تتجاوز الدين: **ليس كل ما يشبه بعضه من الخارج متشابهًا من الداخل.** نفهم الحال بقدر ما نستطيع، ثم نجري الحق على ما ثبت، من غير سذاجة ولا قسوة عمياء.

قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**». (رواه البخاري: 2076).

وفي السوق نفسه تدخل الرحمة إلى المطالبة؛ فالحديث مدح السماحة «**إذا اقتضى**»، لا ترك الحق.

يمكنك أن تحفظ حقك من غير إذلال: تفرق بين قادر يماطل ومعسر لا يجد، وتذكر من غير تشهير، ولا تجعل كل تأخر معركة كرامة.

البركة التي لا تظهر في الحساب

وقال رسول الله ﷺ في المتبايعين: «**فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما**». (رواه البخاري: 2079، ومسلم: 1532).

نحن نحسب الصفقة غالبًا بسؤال: كم ربحت؟ والسنة تدخل في الحساب شيئًا لا يظهر في الآلة: البركة.

قد تمرر عيبًا لم ينتبه إليه المشتري أو تخفي تفصيلًا ينقص السعر، فتنجح الصفقة ماليًا ويقع المحق في معناها الأوسع.

وهذا يعيد بناء معنى الربح نفسه. المال ليس رقمًا فقط؛ لله فيه بركة ينمي بها القليل، ومحق يذهب به خير الكثير.

فلا يعود الصدق التجاري مجرد حماية للسمعة، ولا الكتمان مجرد مخاطرة أن يكتشفك العميل. هناك عين أخرى على العقد، وحساب آخر للربح.

ما لا تملك أن تتكرم به

وقد تكون فتنة الصالح أنه يحب أن يكون كريمًا بما ليس كله له.

قد تكون مسؤولًا عن مال جهة، أو شريكًا في مال مشترك، أو وليًا على حق غيرك، أو شاهدًا على حقيقة ليست ملكًا لك حتى تغيرها بالمجاملة.

هنا قد يكون الورع أن تمنع يدك من التنازل: لو كان حقي لتركت، لكنه ليس حقي وحدي.

الإحسان لا يبدأ من خيانة الأمانة، والنية الطيبة لا تمنحك ولاية لم يعطك الله إياها.

ومن أخطر صور هذا الخلل أن يتكرم الإنسان بمال غيره حتى يحفظ صورته هو: مسؤول يتساهل في حق اؤتمن عليه لأنه لا يريد مواجهة، أو شريك يتصرف في المشترك كأنه ماله وحده، أو من بيده حق لضعيف فيتركه لمن لا يستحق طلبًا للسلامة أو القبول.

ليست هذه الصور كلها حكمًا فقهيًا واحدًا؛ لكن القلب الذي تدخل به إليها واحد: لا تجعل رغبتك في أن تبدو محسنًا أسبق من أمانتك لله.

«أنا خصمهم»

وإذا كان بعض أصحاب الحقوق ضعفاء لا يبلغ صوتهم، فإن السنة تفتح فوق العلاقة مشهدًا يجعل ضعفهم أثقل لا أخف.

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة...**» وذكر منهم: «**رجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**». (رواه البخاري: 2227).

قف عند الكلمة الأولى:

«**أنا خصمهم**».

قد يكون الأجير ضعيفًا. وقد لا يعرف كيف يطالب. وقد يغادر المكان. وقد ييأس من الوصول إلى حقه. وقد يكون المبلغ صغيرًا في حساب صاحب العمل.

لكن سقوط مطالبة الإنسان لا يسقط القضية.

لأن وراءه خصمًا آخر.

الله.

استوفى عمله كاملًا، ثم لم يعطه أجره.

في ظاهر الدنيا: عامل وصاحب عمل، خدمة ومال.

وفي المشهد الذي تكشفه السنة: الله خصم.

ما أبعد هذا عن أن تكون الحقوق بابًا جافًا من أبواب المعاملات. قد يخرج العامل من مكتبك ولا يستطيع أن يصنع شيئًا، وتظن أن الملف أغلق؛ وهو لم يغلق.

وقد يسقط اسمه من نظامك ويبقى حقه في علم الله.

هنا تصبح سرعة أداء الحقوق عبادة قلبية قبل أن تكون كفاءة إدارية؛ لأنك لا تؤدي للإنسان وحده، بل تخاف أن تقف في الجهة التي يكون الله خصمها.

حقك لا يملك لك كرامة صاحبه

ومع هذا كله، للحقوق فتنة في الجهة الأخرى.

أن يصير معك «حق»، فتظن أن الإنسان الذي عليه الحق صار كله تحت يدك.

هو مدين فقط. مقصر فقط. طرف في عقد فقط.

وقد مرّ أن السنة مدحت السماحة في الاقتضاء، ويقول القرآن في موضع ثقيل من الحقوق: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178].

ثبوت شيء لك لا يخلق لك أشياء أخرى لم يثبتها الله.

قد يكون مدينًا لك، ولا يكون عبدًا لك. وقد يكون مقصرًا، ولا تصبح كرامته من جملة الدين. وقد يكون لك أن تطالب، ولا يكون لك أن تتلذذ بحاجته إليك.

وهنا يلتقي هذا الباب بما قبله: الحق نفسه يحتاج إلى عبودية حتى لا يتحول من عدل إلى استعلاء.

وهكذا قد يكون وجه الحسنى هنا شديد العملية: أن تكتب الدين وتحفظ المستند، وتؤدي الأجر في وقته، ولا تبخس، وتصدق وتبين، وتمهل معسرًا، وتطالب قادرًا بسماحة، وتمتنع عن التنازل حين لا يكون المال لك.

قد تكون كلمة «لا» التي تحفظ بها أمانة أحسن عند الله من «نعم» تضيع بها حقًا. وقد يكون عقد واضح أحفظ للمودة من كلام كثير عن الثقة. وقد تكون مطالبة عادلة أنظف للقلب من صمت يتخمر تحته الغضب.

فالحسنى هنا ليست لينًا دائمًا، قد تكون أمانةً واضحةً تحفظ لكل إنسان ما له.

وللحق لسان أيضًا. قد تكون محقًا في أصل المطالبة وتسيء في طريقة القول. الدَّين لا يجعل التعيير جزءًا من الدَّين، والتقصير لا يجعل كرامة صاحبه جزءًا مما تملكه عليه. من الحسنى هنا أن تسمي الحق باسمه، وأن تطلبه بوضوح، من غير فحش ولا إذلال ولا فضح يتجاوز الحاجة. فكما أن لك حقًا في المال أو العقد، للإنسان أمامك حرمة لا تدخل في مقدار ما لك عليه.

لكن الناس لا يدخلون حياتك فقط بقرب أو قوة أو أذى أو حق.

قد يقف أمامك إنسان لم يظلمك، ولا مال لك عنده، ولا مال له عندك، لكن بينك وبينه اختلاف عميق: في اعتقاد، أو قيمة، أو موقف.

وقد يكون ما تعتقده حقًا عزيزًا عليك حتى يخيل إليك أن وضوح الحق يقتضي قسوة على صاحبه. وقد يقع العكس، فتخشى أن تكون واضحًا حتى لا تخسر حسن العلاقة.

وهنا يظهر امتحان جديد:

هل تستطيع أن تخالف من غير أن تستبيحه؟

وأن تحسن من غير أن تداهن؟

وأن يبقى الحق حقًا، والإنسان إنسانًا؟

حين تخالفهم... ولا تعاديهم

ليس كل من يدخل حياتك يدخلها بحق لك عليه، أو أذى وقع منه، أو قوة يملكها عليك.

قد يكون إنسانًا لم يظلمك أصلًا، لكن بينك وبينه اختلاف: في دين، أو اعتقاد، أو قيمة، أو موقف ترى أن الحق فيه واضح، ويرى هو غير ما ترى.

وهنا يقع امتحان دقيق. فالأذى يوقظ الغضب لأنك جُرحت، أما الاختلاف فقد يوقظ شيئًا أخفى: أن تبدأ ترى الإنسان كله من خلال الخطأ الذي تراه عنده. لا يعود فلانًا الذي تعرفه، ولا قريبًا، ولا جارًا، ولا زميلًا، ولا نفسًا لها حاجاتها وضعفها؛ يصير في عينك «مخالفًا»، ثم تكاد الكلمة تبتلع الإنسان كله.

وفي الجهة الأخرى خوف معاكس: أن تحرص على بقاء العلاقة حتى تخفي ما تعتقده، أو تميع الحقيقة حتى لا تزعج أحدًا، أو تسمي التنازل عن وضوحك «حسن خلق».

والقرآن لا يطلب منك أن تخسر الحق حتى تربح الناس، ولا أن تخسر العدل مع الناس حتى تثبت أنك مع الحق.

القرآن يفرّق قبل أن يأمرك كيف تعامل

قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9].

القرآن نفسه يفرّق بين المقامات. ليس كل من خالفك في الاعتقاد، أو انتسب إلى جهة لا توافقها، أو عاش على غير ما تعيش عليه، قد دخل بذلك وحده في مقام العداوة الذي له حكم آخر.

ثم انظر إلى اللفظ الذي اختاره القرآن في المقام الأول:

﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.

بر. وقسط.

ولم يقل إن اختلاف الدين اختفى، ولم يجعل الحق والباطل شيئًا واحدًا. بقي الخلاف خلافًا، وبقي البر برًا، والقسط قسطًا.

وهذه عبودية شديدة الصفاء: أن تعطي الإنسان ما أمر الله أن تعطيه إياه، لا ما يمليه عليك تصنيفك النفسي له.

والقرآن لا يترك هذا البر والقسط في منزلة الواجب الجاف، بل يختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. أن تعدل مع من يختلف عنك، وأن تعطيه من البر ما أذن الله به، ليس مجرد احتمال للآخر، هو باب إلى محبة الله.

ليس ميزانك: كم يشبهني؟ بل: ما مقامه الآن؟ وماذا يريد الله مني معه؟

أمٌّ مشركة... وباب لم يغلق

قدمت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها إليها وهي مشركة، في زمن العهد مع قريش. لم يكن بينهما خلاف صغير في رأي يمكن تجاهله، كان اختلافًا في أصل الدين.

فسألت أسماء رسول الله ﷺ:

«أفأصل أمي؟»

فقال ﷺ:

«نعم، صلي أمك». (رواه البخاري: 2620، ومسلم: 1003).

بقي الدين دينًا، وبقيت الأم أمًا.

لم يطلب النبي ﷺ من أسماء أن تخفي إيمانها لتكون بارة، ولم يجعل اختلاف العقيدة يمحو حق الأمومة.

كم من العلاقات أفسدناها لأننا لم نستطع أن نحمل حقيقتين في القلب معًا.

نظن أن من خالفنا لا بد أن يسقط كل ما له، أو أن من بقي له حق علينا لا بد أن نسكت له عن كل باطل.

لكن الوحي أوسع من هذا الاختزال.

يمكن أن تقول: هذا الذي يقوله ليس حقًا، وهذه أمي. هذا الاعتقاد لا أتبعه، وهذه الرحم أصلها. هذا الباب مغلق، وذلك الباب ما زال مفتوحًا.

لأن الذي يحدد الأبواب ليس انفعالك بل الله. وقد مرّ معنا في القرابة أن الوحي يجمع بين رفض الباطل وبقاء المعروف؛ وهنا يتسع المعنى من القرابة إلى المخالفة.

الأحسن لا يعني الأقل وضوحًا

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

تأمل اجتماع الأمرين في الآية نفسها: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ طريقةً، ثم بيان الاعتقاد بلا ذوبان: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لم يجعل القرآن الحسنى لونًا باهتًا من الكلام لا يعرف السامع بعده ماذا تعتقد.

الأحسن طريقة، والحق محتوى، ويمكن أن يجتمعا.

أن تسمع الإنسان الذي تخالفه

ومن ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أن لا تجادل نسخةً صنعتها أنت من كلام خصمك. قد يكون أسهل عليك أن تختصر قوله في عبارة أضعف، ثم تهزم العبارة وتظن أنك أجبت الإنسان. لكن اللقاء الحقيقي يبدأ حين تستطيع أن تسمعه حتى تفهم ما الذي يقوله هو، لا ما الذي يسهل عليك أن تنسبه إليه.

ليس المقصود أن كل إنسان يملك حجة صحيحة في باطله، ولا أن الفهم نوع من الموافقة. قد تفهمه تمامًا ثم تقول بوضوح: هذا خطأ. لكن فرقًا كبيرًا بين أن ترد على قوله بعد أن سمعته، وأن ترد على نية نسبتها إليه أو دافع لم يخبرك به.

وقد جاءت السنة بحراسة قاسية لادعاء معرفة الباطن. لما قال أسامة بن زيد رضي الله عنه عن رجل قال «لا إله إلا الله» إنه إنما قالها خوفًا من السلاح، قال له النبي ﷺ: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟**» (رواه مسلم: 96). للمشهد حكمه العظيم الخاص، لكن كلمته تبقى حاجزًا في القلب: لسنا أصحاب مشارط تشق السرائر.

فقل: هذا الكلام باطل إذا ثبت بطلانه. وقل: هذا الفعل ظلمني إذا ثبت ظلمُه. لكن تأنَّ قبل أن تضيف: قاله لأنه يحقد، أو فعل لأنه يريد إسقاطي، أو سكت لأنه يكره الحق. **احكم على ما ظهر بقدره، واترك لله ما لم يفتح لك بابه.**

الحق لا يحتاج منك أن تشتم حتى يصير حقًا، ولا أن تحقر من أمامك حتى يثبت، ولا أن تحول كل نقاش إلى معركة كرامة شخصية.

وحين تحتاج إلى القسوة حتى تشعر أنك ثابت، فاسأل قلبك: هل الذي يحتاج هذه القسوة هو الحق، أم أنا؟

حين يتحول الخلاف من قضية إلى ذات

تبدأ المناقشة في فكرة، ثم لا تمضي دقائق حتى ينتقل الامتحان إلى الذات: من انتصر؟ ومن ظهر أقوى؟ وهل أريد أن يظهر الحق، أم أريد أن أظهر أنا معه؟ عندها يصبح تراجع الخصم انتصارًا لصورتي، لا فرحًا بانكشاف الباطل.

ومن هنا يدخل كثير من السوء الذي نلبسه ثياب الغيرة على الحق: التعليق الساخر، والمقطع المبتور، ونقل الزلة خارج سياقها، وفتح ماضي الخصم كله لأنك لم تستطع جواب حاضرته.

والجمهور يزيد النار؛ لأن الإنسان منفردًا قد يريد أن يقنع، أما أمام الناس فقد يريد أن ينتصر.

وفي زمن المنصات قد يكتب الإنسان في دقائق ما يبقى سنوات، وقد يختصر إنسانًا كاملًا في لقطة، ثم يسلمها لجمهور لم يسمع منه إلا ما اختاره خصمه.

هناك تحتاج أن تسأل نفسك بصدق: هل أنا أنصر الحق، أم أستخدم الحق لأنتصر لنفسي؟

حتى القضية الصحيحة لا تجعل كل وسيلة صحيحة

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

ليس في الآية شك في بطلان ما يعبدون من دون الله، ومع ذلك نهت عن وسيلة؛ فصحة القضية لا تجعل كل وسيلة لخدمتها صحيحة، وقد تفتح طريقةٌ سيئة شرًا أكبر من الذي أردت دفعه.

قد تقول: أنا أدافع عن الدين. لكن هل كل سخرية دفاع؟ وهل كل إهانة حجة؟ وهل إذا عرفت أن طريقتك ستستخرج من الناس مزيدًا من العدوان على المقدسات صارت نيتك الحسنة كافية؟

العبد لا يملك النتائج، لكنه لا يتعامل مع الأسباب كأنها بلا مآلات.

إساءة حقيقية... ورفق يحبه الله

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا:

«**السام عليكم**».

وهو دعاء بالموت، ففهمت عائشة رضي الله عنها مرادهم وردت عليهم بشدة.

فقال لها رسول الله ﷺ:

«**يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**».

قالت: ألم تسمع ما قالوا؟

قال ﷺ:

«**قد قلت: وعليكم**». (رواه البخاري: 6927، ومسلم: 2165).

سمع النبي ﷺ الإساءة وفهمها ورد عليها، لكنه لم يجعلها إذنًا بأن ينفتح الرد بلا حد. كلمة واحدة: «**وعليكم**». وضوح بلا ذوبان ولا انفجار.

ثم يضع فوق ذلك كله باعثًا لا علاقة له بخوف الناس أو طلب رضاهم:

«**إن الله يحب الرفق**».

لست رفيقًا لأنك أضعف من أن ترد، ولا لأنك تخشى أن يقال عنك شديد، بل لأن خلقًا يحبه الله صار حاضرًا في اللحظة التي تستفزك فيها الإساءة إلى تركه.

وقد يفسر الآخر رفقك ضعفًا. وقد يستفزك حتى تثبت له أنك قادر على القسوة. لكن لماذا تجعل تفسيره هو الذي يكتب خلقك؟

إذا كان الله يحب الرفق، فهذا يكفي لأن يكون له وزن لا تمنحه إياه أعين الناس.

وفي الجهة الأخرى يقول الله تعالى:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9].

هناك فرق بين أن تلين في الطريقة وبين أن يلين في يدك ما لا تملكه: تترك الكلمة الجارحة ولا تترك الحقيقة، وتختار الوقت الأنسب ولا تجعل الوقت ذريعة للصمت الدائم، وتراعي طاقة الناس من غير أن تقلب الحرام حلالًا حتى تبقى محبوبًا.

أحيانًا تكون القسوة هوى يريد أن يشعر بالقوة، وأحيانًا تكون المداهنة هوى يريد أن يشعر بالقبول.

متى يكون الإعراض عبادة؟

وليس معنى الحسنى أنك مطالب أن تبقى في كل حوار إلى آخره.

قد يبدأ المجلس نقاشًا، ثم يتحول إلى استهزاء. وقد تبدأ المنصة تبادلًا للرأي، ثم يصبح المقصود الاستفزاز والخوض في آيات الله.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68].

وقال سبحانه:

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: 140].

لاحظ أن الأمر ليس بتحويل المجلس إلى عداوة دائمة.

هو حد للمشاركة في هذا المقام: لا تقعد حتى يتغير الحديث.

أحيانًا يكون قيامك من المجلس أعبد من بقائك فيه، وإغلاق نقاش لا ينتج إلا السخرية أحسن من رد عاشر لا يسمع فيه أحد أحدًا.

وقد تكون مغادرة مجموعة، أو إيقاف تعليق، أو إنهاء حوار فعل ضبط لا عجزًا عن الجواب.

الحسنى لا تعني أن تظل متاحًا لكل من يريد أن يجرّك إلى أسوأ نسخة منك.

الثبات لا يحتاج أن يبتلع الإنسان

ومن أجمل ما يحرره هذا الباب أنك لست محتاجًا أن تحول الإنسان كله إلى خصومة حتى تخالفه بصدق، ولا أن توافقه حتى تحسن إليه.

يمكن أن يكون لك قريب تحبه وترفض ما يدعوك إليه.

ويمكن أن تناقش إنسانًا بأحسن ما تستطيع ثم تفارقه وأنت ما زلت تعتقد أن ما قاله باطل.

ويمكن أن تقول «لا» من غير احتقار، وأن تقول «أحسنت» في موضع يستحقه من غير أن تسلمه بقية مواقفه.

هذه ليست ازدواجية؛ هذه عدالة.

أن لا تسلب الإنسان حسنة لأنك رأيت منه خطأ، وأن لا تسمي الخطأ حسنًا لأنك أحببت الإنسان.

ومرّت جنازة فقام لها رسول الله ﷺ، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «**أليست نفسًا؟**» (رواه البخاري: 1312، ومسلم: 961).

و«النفس» هنا ليست مجرد حرمة قانونية. إنها تذكير بأن تحت الاسم والتصنيف إنسانًا له خوف وفرح وفقد وأهل وذكريات، وله طريق إلى الله لا تراه. قد تبقى مخالفته كما هي، لكن رؤيتك له تتسع حتى لا يصبح الاختلاف إذنًا بأن تفقد القدرة على تخيل ألمه أو فهم حاجته أو الاعتراف بخيره.

والحق من عند الله، لا ملك نفسي لك. أنت عبد دُللت عليه وأمرت أن تتمسك به وتدعو إليه.

قل الحق، وأحسن، واثبت، وغادر إذا تغير الحديث أو المقام.

والله هو الهادي.

قد يكون الخلاف عميقًا، وقد تقع إساءة في النقاش، وقد يحتاج المجلس إلى أن ينتهي؛ لكن المخالفة، مهما اشتدت، لا تجعل الآخر بمجردها في مقام حرب أو خطر عام.

وهذا التفريق ضروري؛ لأن الخطأ في الاتجاهين ثقيل: أن تسمي كل مخالف عدوًا فتستبيح معه ما لم يبحه الله، أو أن ترى عداوة حقيقية وخطرًا قائمًا ثم تستعير لها لغة مقام آخر.

فماذا إذا قام وصف آخر فعلًا؟ إذا لم يعد أمامك مجرد مخالف، بل عداوة عامة أو حرب أو خطر معتبر؟

هل يبقى العدل؟ وهل يبقى العهد؟ وهل للقوة حدود حين يكون لها موجب؟

هناك يبلغ الميزان امتحانه الأشد.

حين تقوم العداوة أو الحرب أو الخطر

ليس كل مخالف عدوًا، لكن ليس كل عدو مجرد مخالف أيضًا.

فالقرآن الذي أمر بالبر والقسط، والجدال بالتي هي أحسن، والرفق، هو نفسه الذي شرع القوة في مقامها، والقتال في مقامه، والعزة والشدة في مقامهما.

ليس هذا كتابًا في أن تكون ضعيفًا؛ بل في أن تكون عبدًا.

وأحيانًا تكون العبودية رحمة، وأحيانًا تكون مطالبة، وأحيانًا تكون قوة.

لكن القوة في الوحي لا تستمد مشروعيتها من حرارة صدرك.

إذا كان غضبك هو الذي أعطاها لك، فالغضب يستطيع أن يزيدها كلما ازداد. أما إذا كان الله هو الذي شرعها، فالله هو الذي يحدد جهتها، ويضع حدودها، ويقول متى تبدأ ومتى تقف.

قبل القوة: من يملكها؟

وهنا حراسة لا يجوز أن تتأخر.

النصوص التي تتحدث عن القتال والعهود والأمان والعقوبات العامة ليست بطاقة يحملها كل فرد فيقرر بها من عند نفسه من هو العدو الذي يقاتله، ومن يعطيه الأمان، ومن يسلبه إياه.

هذه أبواب لها جهة واختصاص وشروط وفقه ومآلات.

ومن العبودية أن تعرف أن بعض الأحكام قد تكون مشروعة لجهة تملكها، ولا تكون مشروعة لك أنت.

الغضب لا ينشئ ولاية. والحماس لا ينصب قاضيًا. وصحة القضية لا تجعل الفرد دولةً أو جهة حرب.

وفي زمن يستطيع فيه الإنسان من هاتفه أن يشعر كأنه قاضٍ ومحكمة وناطق رسمي في لحظة واحدة، يصبح هذا المعنى نفسه عبادة: أن تعرف ما ليس لك أن تفعله.

حين يكون الدفع هو العبادة

لكن هذه الحراسة لا تعني أن القوة موضع ريبة في ذاتها، ولا أن الطرف المظلوم مطالب دائمًا بأن يكتفي بالصبر أو الانسحاب.

فالقرآن نفسه نقل قومًا من حال الاستضعاف إلى الإذن بالدفع حين قام مقامه، فقال الله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: 39-40].

لم تصف الآية هؤلاء بأنهم قوم ضاقت أخلاقهم لأنهم دفعوا عن أنفسهم. سمت ما وقع بهم ظلمًا، وذكرت إخراجهم من ديارهم، ثم جاء الإذن.

﴿أُذِنَ﴾.

وهذه الكلمة وحدها ترد القوة إلى أصل الميزان كله: لم يشرعها الغضب، ولم يمنعها الخوف. أذن بها الله حين صار المقام مقامها.

ثم يجيء القلب الإيماني قبل صورة القوة وبعدها:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

فالمؤمن لا يدفع لأنه صار وحده مالك مصيره، ولا لأن السلاح أو العدد صار ربًا جديدًا للمشهد. يدفع بما أذن الله، وقلبه متعلق بمن هو أقدر على نصره من كل سبب.

وقد يكون الوقوف هنا هو العبادة، كما كان الكف في مقام آخر هو العبادة. وقد يكون منع المعتدي من الاستمرار رحمةً بمن سيقع عليه ظلم جديد، لا تشفيًا ممن وقع منه الأول.

وليس كل دفع مشروع من أبواب السلطة العامة. فقد قال النبي ﷺ: «**من قُتل دون ماله فهو شهيد**» (رواه البخاري: 2480، ومسلم: 141). لا يمنح الحديث فردًا صلاحيات حرب عامة، لكنه يمنع أن يُفهم ضبط القوة على أنه تسليم النفس والمال لكل معتدٍ؛ فثمة دفع شخصي مشروع له بابه وقدره وحدوده.

ولذلك فليس السؤال: هل القوة أرفع أم العفو؟ بل: أيهما قام موجبه في هذا المقام؟

ومع ذلك يبقى هذا الإذن في مقامه العام، وبجهته واختصاصه؛ فلا يتحول إلى تفويض فردي يشرع به كل غاضب لنفسه ما يشاء.

حتى الشنآن لا يملك أن يشرع الاعتداء

قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2].

ليس الحديث عن خصومة صغيرة.

﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

جرح في الدين، ومنع عن بيت الله، وذكرى قادرة على أن تملأ الصدر غضباً.

ومع ذلك:

﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

ما فعلوه بك لا يكتب لك ما تشاء أن تفعله بهم.

وهذه من أعظم علامات العبودية: أن يكون لك سبب حقيقي للغضب، ثم لا يصبح السبب ربًا صغيرًا يشرع لك.

العدل حين يوجد الشنآن

ومن أصرح الحدود التي يضعها القرآن للقوة حين توجد العداوة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

تبدأ الآية من جهة القلب قبل الخصم: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾، ثم تعترف بوجود ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ من غير أن تجعله عذرًا، ثم تأتي الكلمة الحاسمة: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. البغض موجود، والعدل باق؛ لأن العدل ليس مكافأةً لمن أحببته، بل عبادة لله.

قد تكون التقوى هنا في خبر ترفض نشره لأنه لم يثبت مع أنك تتمنى أن يثبت على عدوك، وفي تهمة تستطيع إضافتها إلى سجل خصمك لكنك لا تملك عليها بينة، وفي حكم ترفض أن تعممه على جماعة كاملة لأن بعض أفرادها فعلوه.

أحيانًا تكون أقرب خطواتك إلى التقوى أن تمنع نفسك من ظلم من لا تحبه.

وقد يظهر هذا العدل في تفاصيل لا يصفق لها أحد: خبر ترفض نشره لأنه لم يثبت، أو تهمة لا تضيفها إلى خصمك بلا بينة، أو بريء لا تحمله وزر جماعته.

واللسان لا يخرج من العبودية حين تدخل العداوة. ليس القول الحسن هنا مدحًا للعدو ولا تمييعًا لحقيقة العداوة، قد يكون قولًا شديدًا في موضعه، لكنه يظل قولًا عادلًا: لا تكذب عليه، ولا تضف إليه ما لم يثبت، ولا تحمل بريئًا وزر جماعته، ولا تجعل الشنآن إذنًا بالتشهير والتعميم. **قد تتغير نبرة الخطاب بتغير المقام، لكن الصدق والعدل لا يتغيران.**

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

هذه ليست برودة قانون، إنها خشية: الله يعلم العدل، ويعلم ما لبس لباسه وهو تشفٍّ.

في قلب البراءة... عهد لا يسقط

ومن أشد مشاهد القرآن دلالة أن سورة التوبة، في سياق البراءة والقتال، لم تمح العهد الذي بقي أهله عليه.

قال الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

لاحظ أين جاءت التقوى:

﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾.

ثم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قد يتوهم الإنسان أن التقوى في هذا المقام لا تكون إلا في مزيد من الشدة، فتفتح الآية لها وجهًا آخر: أن تتم العهد لمن وفى به، ولو كان في سياق عداوة عامة.

الوفاء هنا ليس سذاجة، ولا نسيانًا لما بينكم؛ إنه عبودية.

الغضب لا يملك أن يحولك إلى خائن.

«من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». (رواه البخاري: 3166).

العهد هو الوصف الحاكم للمشهد؛ فلا تمحوه خصومة ولا غضب.

عدو يطلب الأمان

ثم يأتي مشهد من أشد المشاهد قوة؛ لأنه يقع في السورة نفسها وفي قلب سياق العداوة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6].

تأمل الحركة.

هو من المشركين، والسياق سياق عداوة، ثم يطلب الجوار.

فتدخل كلمة واحدة فتغير الحكم:

﴿فَأَجِرْهُ﴾.

ثم يسمع كلام الله.

ثم لو لم يدخل في الإسلام؟

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

ليس فقط: لا تقتله.

بل أوصله إلى الموضع الذي يأمن فيه.

ثم لا تنته الآية عند الأمان، بل تكشف شيئًا عن الذي أمامك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾. في أشد سياقات الكتاب عداوةً لا يبقى الآخر كتلةً مغلقة اسمها «العدو»؛ يراه الوحي إنسانًا لا يعلم، يمكن أن يسمع كلام الله، ويمكن أن تقوم له حال أخرى بعد السماع.

هذا لا يلغي وصف العداوة القائم ولا أحكامه، لكنه يمنع القلب من أن يتلذذ بتحويل الوصف المؤقت إلى تعريف كامل للإنسان. حتى هنا بقي للآخر داخلٌ ومستقبلٌ محتمل لم تملكه بعد.

ما الذي صنع هذا التحول؟

لم تختف حقيقة العداوة العامة، لكن وصفًا جديدًا اعتبره الشرع دخل المشهد: استجار.

فصار له حكمه.

هذه من أنقى صور العبودية في القوة: أن يتغير حكمك لأن الله غيّر وصف المقام، ولو بقي غضبك أبطأ من النص.

القوة الحقيقية تعرف كيف تتوقف

ومن علامات القوة المعبدة لله أنها ليست متعلقة بالحركة نفسها.

تستعمل القوة حين يكون استعمالها هو التكليف، وتقف حين يكون الوقوف هو التكليف، وتفي بالعهد حين يكون قائمًا، وتحفظ الأمان حين ثبت، ولا تجعل استمرار الشدة غاية في ذاتها.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61].

هذه الآية في بابها العام، لكن قلبها التربوي ظاهر: ليست القوة وفاءً بالحركة السابقة بعد أن يتغير الحكم.

وتأمل:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

قد يتعلق القلب باستمرار القوة لأنه يشعر معها أنه يحمي نفسه بنفسه، فتأتي الآية بالسلم في موضعه ثم بالتوكل.

الحفظ ليس في يدك وحدك.

قرار لا يكتبه غضب اللحظة

وفي غزوة وقع ما وقع من عبد الله بن أبي، وقال كلمته الخبيثة، فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال رسول الله ﷺ:

«دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه». (رواه البخاري: 4907، ومسلم: 2584).

والمشهد هنا لا يوزع أحكامًا على كل واقعة؛ إنما يكشف أن القرار العام الذي يمس دمًا ومجتمعًا ودعوة لا يكتبه مقدار الغضب في اللحظة فقط.

دخل المآل، ودخل أثر القرار في الناس، ودخل ما سيُفهم منه بعد أن تنتهي اللحظة التي أغضبتك.

وهذا فرق بين رد الفعل وبين الحكم.

الغاضب يرى الفعل الذي أمامه. أما من اؤتمن على قرار عام فعليه أن يرى ما بعد الفعل أيضًا.

حين يدخل الجمهور إلى الغضب

هذا الامتحان صار أقرب إلى الإنسان المعاصر؛ لأن الخصومة لم تعد دائمًا بين طرفين.

يقع حدث عام، ثم تدخل ملايين الهواتف إلى المشهد. مقاطع، وصور، وأخبار عاجلة، وغضب جماعي، ثم تبدأ الكلمات الكبيرة قبل أن تكتمل الحقائق.

بعد قليل لا يعود السؤال: ماذا ثبت؟ بل: من معنا ومن ضدنا؟

وقد يصبح الإنسان مستعدًا لتصديق أي خبر يؤذي الجهة التي يكرهها، ورفض أي حقيقة تخفف الصورة عنها، لأن الصراع لم يعد عنده بحثًا عن الحق بل بحثًا عن ذخيرة.

هنا يظهر وزن:

﴿اعْدِلُوا﴾.

هل هذا الشخص داخل الوصف أصلًا؟ هل ثبت الخبر؟ هل نحاسبه على فعله أم على نسبه وبلده وجماعته؟ هل هذه الصورة كاملة أم مقطوعة؟ هل الدعوة التي أرددها من حقي أصلًا؟

هناك تعرف هل أنت مع الحق، أم مع كل ما يؤذي خصمك.

ومن أخطر ما يصنعه الاستقطاب أن ينقل لغة العداوة العامة إلى العلاقات الشخصية: يختلف قريب في قضية عامة فتستعير له لغة الخيانة، ويخطئ زميل في موقف فتتعامل معه كأن كل حرمة سقطت، وتقع جريمة من أفراد فتحمل وزرها كل من يشبههم في اسم أو بلد أو انتماء.

والشريعة نفسها تفرق بين من قاتل ومن لم يقاتل، وبين من وفى ومن نقض، وبين معاهد ومستجير، وبين وصف قائم ووصف زال. فكلما اشتد المقام ازدادت حاجتك إلى الدقة، لا العكس.

حين تدفع وحين تكف

قد يتوهم القلب أن العزة في استمرار القوة دائمًا، أو يقع في الوهم المقابل فيظن أن التقوى دائمًا في تركها.

وكلاهما قد يخرج من النفس: شهوة الغلبة، أو شهوة أن نرى أنفسنا دائمًا الطرف المتسامح.

أما من كانت قوته لله، فلا يحتاج إلى الظلم حتى يشعر أنه قوي، ولا يحتاج إلى ترك ما أذن الله به حتى يشعر أنه تقي.

قد تملك أن تؤذي، فيمنعك عهد، فتقف.

وقد تملك أن تستمر، فيدخل وصف شرعي يوجب الكف، فتكف.

وقد تكره قومًا، ثم يقول الله:

﴿اعْدِلُوا﴾.

فتعدل.

وتكون القوة كذلك حين تُظلَم فيقوم موجب الدفع المشروع؛ فالدفع ليس نقصًا في روحانيتك لمجرد أنه قوة.

فالقوة هنا لا تُمدح لذاتها ولا تُتَّهم لذاتها؛ إنما تُضبط بالموجب والقدر والاختصاص، وتتغير حين يتغير الوصف.

ويبقى قبل الانتقال امتحان أخير:

قد يكون الإنسان اليوم في مقام عداوة حقيقية، ثم لا يبقى غدًا في المقام نفسه. وقد يكون الباغي باغيًا ثم يفيء، والمذنب مصرًا ثم يتوب، والثقة مكسورة ثم يتغير من أسباب الحكم شيء.

والنفس لا تتحرك بسرعة النص دائمًا.

قد يتغير الإنسان أمامك ويبقى قلبك يحاكم نسخة الأمس.

كما أن من الخطأ أن نسقط وصف العداوة قبل زوال سببه، فمن الخطأ أيضًا أن نحوله إلى هوية أبدية إذا تغير المقام على وجه اعتبره الله.

فمتى يجب أن يتغير حكمك لأن الحال تغيرت؟

وماذا لو اكتشفت أن الذي يحتاج إلى التغير هذه المرة ليس الآخر... بل أنت؟

حين تتغير الحال... وحين تحتاج أنت أن تتغير

الناس لا يبقون صورًا ثابتة. قد يكون الإنسان اليوم مسيئًا ثم يعتذر، ومذنبًا ثم يتوب، وباغيًا ثم يفيء، ومخاصمًا ثم يفتح الله بينك وبينه بابًا لم يكن موجودًا. وقد تكون أنت صاحب الحق في مشهد، ثم لا تمضي أيام حتى تصبح محتاجًا إلى أن تقول: أخطأت.

والنفس ترتاح إلى الأسماء المستقرة: هذا طيب، وهذا خائن، وهذا عدو، وأنا في الجهة الصحيحة. لكن الحقيقة قد تتغير، وحكمك لا يجوز أن يتأخر عنها.

العداوة ليست اسمًا أبديًا

قال الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7].

تأمل المسافة بين الكلمتين: ﴿عَادَيْتُمْ﴾، ثم ﴿مَوَدَّةً﴾. العداوة كانت حقيقية؛ لم يقل القرآن إنها سوء فهم. ثم فتح فوقها بابًا لا تملكه أنت: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أنت ترى قلبًا كما هو اليوم، والله يملك قلب الغد. وهذا لا يعني إعادة الثقة قبل أسبابها، ولا إسقاط حق أو أثر شرعي باقٍ؛ لكنه يمنعك أن تجعل الماضي حكمًا أبديًا لا يغيّره حتى ما اعتبره الله من توبة وتحوّل.

حين ينتهي الهجر

ومن أشد المشاهد تجسيدًا لهذا المعنى قصة كعب بن مالك رضي الله عنه وصاحبيه. تخلفوا عن تبوك، وجاء الأمر بهجرهم. خمسون ليلة لا يكلمهم المسلمون، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم. كان الهجر في ذلك المقام طاعة، لا قسوة هوى ولا خصومة نفس.

ثم تاب الله عليهم. فانتهى موجب الهجر، ولم يتحول كعب إلى «المهجور» إلى آخر حياته.

انطلق إليه المبشر، وقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحه وهنأه، ودخل كعب على رسول الله ﷺ فإذا وجهه يبرق من السرور، فقال له: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**». (رواه البخاري: 4418، ومسلم: 2769).

يا لسرعة التحول حين يغير الله المقام. بالأمس كان ترك الكلام معه عبادة، واليوم صار الفرح بتوبته هو العبادة. تغيّر موجب الهجر بقبول التوبة، فتغيّر ما يقتضيه الحكم الشرعي في هذا المقام..

ومن هوى النفس أن تحب العقوبة بعد انتهاء وظيفتها؛ فيبقى الآخر في الموضع الأدنى ليذكرك كل يوم أنك كنت على حق.

الذنب لا يملك الإنسان كله

وفي السنة مشهد آخر يكشف التوازن من جهة أدق. جاءت امرأة من جهينة إلى النبي ﷺ وهي حبلى من الزنا، وأُقيم عليها الحد بعد استيفاء ما تقتضيه أحكامه الشرعية، ومع ذلك لم يجعل النبي ﷺ الذنب إذنًا بإهدار كرامتها؛ فدعا وليها وقال له: «**أحسن إليها**». ثم بعد إقامة الحكم صلى عليها، ولما سُئل عن ذلك أثنى على توبتها فقال: «**لقد تابت توبة لو قُسِمَت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟**». (رواه مسلم: 1696).

وهذا المعنى صار أشد في زمن لا ينسى فيه الأرشيف: يخطئ إنسان علنًا ثم يعتذر ويصحح، ويبقى المقطع القديم حاضرًا كلما ظهر في خير.

وقد تكون في إظهار الماضي مصلحة معتبرة أو حق لم يرد؛ فليس المطلوب دفن الحقائق. إنما الفرق بين حفظ الحق وبين تحويل الزلة إلى هوية دائمة، حتى تصبح توبة الآخر تهديدًا للصورة التي تحبها عن نفسك.

ثم تنقلب المرآة

ومن السهل أن يبقى النظر متجهًا إلى الآخر: هو الذي تغيّر، وهو الذي تاب، وهو الذي يجب أن نعدل حكمنا عليه. لكن أن ترى نفسك دائمًا المظلوم، ودائمًا الأوعى، ودائمًا صاحب الحق، يستطيع أن يبني فيك غرورًا أخلاقيًا ولو ملأت كلامك بالرحمة.

أحيانًا لا تحتاج أن تسأل: كيف أتعامل مع من ظلمني؟ بل: ماذا أفعل وقد ظلمت أنا؟

باب الرجوع لا يغلق لأن صورتك اهتزت

قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ [النساء: 110].

ما أوسع الباب: ﴿يَعْمَلْ سُوءًا﴾، ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾، ثم ﴿يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾، ثم لا يجد أمامه ربًا يشمت به لأنه سقط من الصورة التي كان يحبها لنفسه: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أحيانًا يكون أصعب ما في التوبة أن تقول: أنا الذي أخطأت. ليس لأن الجملة طويلة، بل لأنها تهدم بناءً داخليًا قديمًا: أنا منصف، أنا لا أظلم، أنا دائمًا الذي يصلح، أنا أكثر هدوءًا منهم، أنا حسن النية. ثم تقع منك كلمة أو موقف لا ينسجم مع هذه الصورة.

وهنا يلزم أن تسمح للصورة أن تسقط قبل أن تمنعك من التوبة. ما قيمة أن تبقى جميلًا في عين نفسك إذا كان الثمن بقاء مظلمة في ذمتك؟

«إنك امرؤ فيك جاهلية»

عير أبو ذر رضي الله عنه رجلًا بأمه. ولم يكن أبو ذر بلا سابقة ولا إيمان ولا فضل، ومع ذلك لم يجعل النبي ﷺ فضائله القديمة ستارًا على الكلمة التي خرجت منه، فقال له: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». (رواه البخاري: 30، ومسلم: 1661).

جملة ثقيلة، لكنها رحمة. لم يقل: أنت جاهلي. قال: «**فيك جاهلية**». سمى موضع الداء، ولم يمح الرجل كله.

ولم يبق التصحيح كلامًا عابرًا في ذاكرة أبي ذر؛ رآه المعرور بن سويد بعد ذلك وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فلما سئل ذكر وصية النبي ﷺ في الإحسان إلى من تحت اليد. صار التصحيح سلوكًا يُرى.

ولهذا لا يجعل القرآن أخطاء اللسان الاجتماعي خارج باب التوبة. بعد السخرية واللمز والتنابز يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11].

وهذا ميزان تحتاجه مع نفسك كما تحتاجه مع الناس: لا تقل أنا صالح فلا يمكن أن أكون قد ظلمت، ولا تقل أخطأت إذن أنا فاسد لا فائدة من رجوعي. قل: هذا مني خطأ، وهذا باب توبة فتحه الله لي.

التوبة من ظلم الناس لها طريق إلى الناس

لكن بعض الذنوب لا تقع بينك وبين الله وحدك؛ تقع في عرض إنسان، أو ماله، أو سمعته، أو قرار بني على كلامك. وهنا لا تكفي توبة تبقى في القلب وتريح صاحبها بينما يظل أثرها في حياة غيره.

قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم**». (رواه البخاري: 2449).

قف عند كلمة: «**اليوم**». اليوم ما زال المال مالًا، والكلمة يمكن أن تُصحح، والرسالة يمكن أن تُرسل، والإنسان حيّ تستطيع أن تقول له: أخطأت. أما غدًا فقد لا يبقى في يدك دينار ولا درهم؛ هناك تصبح الحسنات والسيئات هي العملة.

ولهذا فالتوبة من مظالم الناس ليست دائمًا دمعة بينك وبين الله. قد تكون تحويلًا ماليًا، أو مكالمة، أو إقرارًا لا تحبه نفسك، أو رسالة إلى المجموعة نفسها التي نقلت فيها الخبر تقول فيها: ما نقلته عن فلان لم يكن صحيحًا، وأنا أخطأت. وقد تكون تصحيح تقييم وظيفي ظلمت به إنسانًا، أو رد اعتبار في المجلس نفسه الذي كسرت فيه اعتباره.

الاستغفار لا يجعل الأثر الذي تستطيع إصلاحه يصلح نفسه.

الاعتذار الذي لا يدافع عن نفسه

ومن أصعب أبواب الرجوع اعتذار لا يحمل معه ملف دفاع: آسف، لكنك استفززتني. أخطأت، لكنك بدأت. لم أقصد، وأنت تعرف نيتي. إن كنت فهمت كلامي خطأ فأعتذر.

كثير من الاعتذارات تعطي بيد وتأخذ بالأخرى؛ تقول: سامحني، ثم تعيد بناء القضية بحيث تبقى أنت الطرف الأصح. والتوبة تعلمك لحظة من التجرد: هذا حدث مني، وكان خطأ، ولك علي ما ثبت لك بسببه.

ولا يعني هذا أن تحمل نفسك ما لم تفعله، أو أن توافق على رواية باطلة عن الواقعة؛ فالعدل مطلوب حتى مع نفسك. لكن إذا ظهر الخطأ، فلا تجعل مهارتك في الصياغة وسيلة للخروج من باب الاعتراف من غير أن تدخله.

وهنا يكون القول الحسن أحيانًا أشقَّ من الكلام اللطيف: أن تقول الحقيقة على نفسك. اعتذار صادق، وتصحيح واضح، ورد اعتبار لمن جرحته، كل ذلك من خُلُق لا يريد أن يحفظ صورته بقدر ما يريد أن يرضي الله. فحسن القول ليس أن تخرج من كل حوار جميل الصورة؛ بل أن يخرج الحق سليمًا من لسانك ولو كان عليك.

وقد يؤجل الإنسان رد المظالم خوفًا على هيبته أو صورته، لكن إذا ثبت الحق فالأثقل أن يلقاه يوم «**لا يكون دينار ولا درهم**». ما زال اليوم يملك أن يرد ويعتذر ويصحح ويتحلل.

وهكذا تجتمع الصورتان. إذا تغير الآخر تغيرًا اعتبره الله، فلا تجمده في ماضيه. وإذا ظهر أنك أنت الذي أخطأ، فلا تجمد نفسك في الصورة التي تحبها.

قد تنقلب العداوة مودة، وينتهي الهجر، ويتوب المذنب، وتنتقل أنت من صاحب حق إلى صاحب مظلمة في ذمتك في جملة واحدة. وفي كل مرة لا يجوز أن يتأخر حكمك عن الوصف الذي صار قائمًا، ولا أن يبقى أسير الأمس أو الصورة التي تحبها عن نفسك.

لكن الطريق لا ينتهي عند أن تصلح علاقتك أنت. قد تقع بين قلبين متخاصمين، أو أمام بغي تستطيع أن تمنعه، أو كلمة تصل بها ما انقطع. فهل الإصلاح أن يهدأ الجميع ولو بقي الظلم؟ وما حدود دورك أصلًا؟

من صلاح العلاقة إلى إصلاح الناس

قد يصلح الإنسان كثيرًا من علاقاته، ثم يضعه الله في موضع لا يكون فيه طرفًا أصلًا: بين أخوين، أو زوجين، أو شريكين، أو فريقين، أو أمام موظف أضعف من مديره، أو داخل مجلس تكاد كلمة واحدة فيه أن تزيد القطيعة سنة كاملة.

وهنا يتسع السؤال. لم يعد فقط: كيف أكون أنا حسن العلاقة؟ بل: ماذا أفعل حين أستطيع أن أصلح ما بين الناس؟

ولم يكن الإصلاح في السنة معنى يوصى به من بعيد فقط. بلغ رسول الله ﷺ أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، «**فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم**». (رواه البخاري: 2690)، وطال مقامه في الإصلاح حتى حانت الصلاة وهو لم يرجع بعد.

خرج إليهم. دخل في المسافة التي صنعتها الخصومة. وأخذ من وقته ما أخذ. قبل أن نتعلم ماذا يقول المصلح، تريك السنة أن الإصلاح نفسه عمل يُسعى إليه، لا أمنية نقولها للمتخاصمين من مكان آمن ثم نمضي.

نجوى تستطيع أن تصلح أو تفسد

قال الله تعالى: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: 114].

ما أكثر ما يفسد العلاقات في الكلام الذي لا يسمعه أصحابه: مكالمة بعد أن يغادر أحدهم، ورسالة خاصة، ومجموعة مغلقة، واجتماع جانبي، وعبارة: «سأقول لك شيئًا لكن لا تخبره».

في هذه المساحة يستطيع الإنسان أن يكون بريدًا للعداوة، أو سببًا للإصلاح. قد يحمل كلمة غضب من طرف إلى آخر حتى تصبح موقفًا ثابتًا، ويحذف نبرة الخير ويحتفظ بما يشعل، ويستمتع أن يكون الرجل الذي يعرف أسرار الجميع. ثم يفتح القرآن داخل عالم النجوى استثناءً: ﴿**أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾.

أن تستعمل المساحة نفسها لا لتزيد المسافة، بل لترد الناس بعضهم إلى بعض. ثم لا يترك القرآن المصلح مفتونًا بجمال فعله، فيسأل عن الباعث: ﴿**ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾. قبل أن تصلح بينهم، أصلح جهة قلبك: لمن تفعل؟

ليس كل هدوء إصلاحًا

الإصلاح كلمة جميلة، ولذلك تستطيع النفس أن تستعملها لتغطي أشياء غير جميلة. يسكت المظلوم فنقول: انتهت المشكلة. يقبل الضعيف بما فرض عليه فنقول: اتفقوا. تعود الابتسامات ويبقى الحق مكسورًا تحت الطاولة فنقول: الحمد لله صلحوا.

لكن القرآن لا يسمي كل هدوء صلحًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 9-10].

في الآية إصلاح، ثم بغي، ثم منع للبغي، ثم فيء، ثم إصلاح جديد، ثم عدل وقسط. ليس الإصلاح تسكين الصوت؛ إنه رد العلاقة إلى ما يحبه الله.

وقد يتطلب ذلك أن تقول للطرف الأقوى: قف، وأن تقول للمظلوم: حقك باق، وأن ترفض مصالحةً تنقل كلفة «السلام» كلها إلى من وقع عليه الظلم. وليس القارئ هنا جهة إنفاذ لهذا الحكم العام؛ إنما يأخذ منه ميزانًا لا يجيز أن يسمى بقاء الظلم سلامًا.

ثم تأتي كلمة تختبر قلب المصلح بقدر ما اختبرت الباغي: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾. تغير الوصف. فماذا بعد؟ هل نستمر في إذلال الطرف الذي كان باغيًا لأننا الآن في موضع قوة عليه؟ لا. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾.

قبل الفيء: أوقف البغي. وبعد الفيء: أوقف نفسك عن تحويل منع البغي إلى انتقام. المصلح الحقيقي لا يتعلق بمشهد القوة أكثر مما يتعلق بمشهد الهدوء؛ يتبع الحكم وهو يتغير مع المقام.

نصر الظالم أن تمنعه

قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**». فسألوا عن الظالم، فقال ﷺ: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره**». (رواه البخاري: 6952).

ما أعجب أن يسمى المنع نصرًا. نحن نظن أن الوقوف مع الإنسان يعني الوقوف مع رغبته، وأن الوفاء للصديق أن نجد له تفسيرًا في كل خطأ، وأن حماية المؤسسة أن نخفي ظلم مسؤول فيها، وأن نصرة القريب أن نكون معه ولو حمل مظلمة إلى قبره.

لكن السنة تقلب المعنى: تمنعه من الظلم، وهذا نصره. قد يغضب منك، وقد يقول: احتجتك معي فوجدتك علي. لكن ماذا لو كان «معه» يعني أن تساعده على أن يلقى الله بظلم جديد؟ أحيانًا يكون أوفى الناس لك من وقف أمامك وقال: لا.

المصلح لا يوزع الخطأ بالتساوي ليبدو محايدًا

في الحياة اليومية لا يكون البغي دائمًا قتالًا. قد تدخل عليك خصومة أسرية، ويكون أحد الطرفين أشد ظلمًا من الآخر. وقد يكون في المؤسسة صاحب سلطة استعملها في أضعف منه. وقد تأتيك قضية تريد النفس أن تنهيها بجملة سهلة: كلاكما مخطئ. وقد تكون الجملة مريحة، لكنها ليست عادلة.

المصلح لا يخاف من الحقيقة حتى يحافظ على صورة الحياد. قد يكون لأحدهما الحق كله في نقطة، ويكون عليه خطأ في نقطة أخرى. وقد يطلب من المظلوم أن يضبط تجاوزه، ولا يسقط بذلك أصل مظلمته. وقد يطلب من الظالم أن يرد الحق قبل أن يبدأ الحديث عن الصفح.

الصلح الذي يحتاج إلى دفن الحقيقة حتى يعيش يحمل المشكلة التالية في داخله.

كن سببًا... لا مركزًا

قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1].

يأتي إصلاح ذات البين بين أمرين يعيدان الجميع إلى المصدر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ثم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. لأن فتنة المصلح أن يصبح بعد قليل هو المرجع: فلان لا يتكلم إلا عن طريقي، وفلان لا يهدأ إلا إذا اتصلت به، وأنا أعرف ما في قلب الاثنين.

ثم يكبر حضورك حتى تصبح أنت الشيء الذي لا تقوم العلاقة بدونه. لكن الإصلاح لله لا يصنع اعتماد الناس عليك؛ يعيدهم ما استطاع إلى الحق. أنت سبب، ولست مالك القلوب.

اعرف الباب الذي يخصك

ومع ذلك قد تكون عبادة المصلح هذه المرة أن لا يدخل. ليس كل خلاف بلغك صار أمانة في عنقك لتعالجه، ولا كل سر عرفته إذنًا بأن تجمع أصحابه، ولا كل علاقة مضطربة تحتاج طرفًا ثالثًا.

قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**». (رواه الترمذي: 2317).

قد يكون الأمر لأهله، أو يحتاج مختصًا، أو صاحب ولاية، أو من يعرف من حقيقته ما لا تعرف. وقد يكون سؤالك عن التفاصيل نفسه زيادةً في المشكلة، أو دخولك سببًا لأن يصير النزاع بين ثلاثة بعد أن كان بين اثنين.

أحيانًا يكون الخير أن تتقدم. وأحيانًا أن تدل على من هو أصلح منك. وأحيانًا أن تحفظ ما بلغك وتسكت. فالإصلاح ليس شهوة حضور، ومن عبوديته أن تعرف أيضًا ما ليس لك أن تفعله.

اللسان الذي يحمل النار يمكن أن يحمل خيرًا

قال رسول الله ﷺ: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا**». (رواه البخاري: 2692، ومسلم: 2605).

وهنا يصير في يدك كلام غائب لغائب، وهذا أخطر. «قال عنك كذا»، ثم تضيف النبرة التي لم يقلها، وتحذف الجملة التي خففت المعنى، وتنقل أشد عبارة قيلت في لحظة غضب كأنها خلاصة قلب صاحبها. وقد لا تكذب كلمة واحدة، ثم يكون اتجاهك كله إفسادًا.

وفي المقابل تستطيع أن تنمي خيرًا، لا أن تختلق واقعًا كاذبًا، بل أن تحمل ما يصلح من الخير، وتدفن كلمة غضب تعرف أنها ليست قرارًا، وتمنع شائعة قبل أن تصبح موقفًا. وقد يكون الفارق بين النار والإصلاح كلمةً لم تنقلها.

والمصلح نفسه يحتاج من يصلحه

الإصلاح عبادة، ولذلك لا ينجو من الهوى لمجرد أن اسمه جميل. قد تحب أن يحتاجك الناس، أو تستمتع أن تكون صاحب الأسرار، أو تميل إلى طرف ثم تسمي ميلك حكمة، أو تضغط على الأضعف لأنه أسهل إقناعًا من القوي ثم تعرض النتيجة على أنها صلح ناجح.

ولهذا يحتاج المصلح أن يسأل نفسه: هل أعطيت كل طرف فرصة أن يتكلم؟ وهل سمعت منه ما وقع فقط، أم حاولت أن تفهم كيف عاشه هو؟ هل أستطيع أن أعيد روايته بطريقة يقول معها: نعم، هذا ما

أقصده – ثم أزنها بعد ذلك بالعدل؟ هل نقلت العبارة كما قيلت؟ هل أضفت تفسيرك ثم نسيت أنه تفسيرك؟ هل كشفت سرًا لا يحتاج الإصلاح إلى كشفه؟ هل أريد انتهاء المشكلة فعلًا، أم أريد أن أبقى ضروريًا لحلها؟

أن تفهم رواية الطرف لا يعني أن تصدق كل حكم بناه عليها، كما أن سماع ألمه لا يجعل كل رد صدر منه حقًا. لكنه يمنعك من أن تصلح بين شخصين لم تسمعهما، وتكتفي بالإصلاح بين صورتين صنعتَهما عنهما.

هذه الأسئلة لا تصغر مقام الإصلاح؛ هي التي تحرسه من المصلح.

لا تخف من الخير لأنك لا تملك النتيجة

ومع كل هذه الحراسات، لا تجعل الخوف من الخطأ يمنعك من عون تقدر عليه. قال رسول الله ﷺ: **«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**. (رواه مسلم: 2699).

قد تدخل إلى كربة لم تصنعها، وتبذل وقتًا لا يعود عليك بشيء، وتحمل هم إنسانين، وتحاول أن تحفظ حقًا، أو تمنع قطيعة، أو توصل كلمة. وقد ينتهي الأمر ولا يشكرك أحد. وهنا يكفيك شيء آخر: أنت في عون أخيك، والله في عونك.

ما أعظم الفرق بين مصلح يدخل ليحتاج الناس إليه، ومصلح يدخل وهو نفسه المحتاج إلى عون الله.

ثم تصل إلى الحد الذي لا تملكه

وقد تفعل كل ما تعرفه صحيحًا ولا يصلحون. تسمع، وتعدل، وترد حقًا، وتمنع بغيًا بالطريق المشروع الذي تملكه، وتختار الكلمة، وتفتح بابًا بعد باب؛ ثم يرفض قلب، أو يغلق إنسان الباب، أو لا يأتي الوقت الذي كنت تظن أنه سيأتي.

هنا امتحان المصلح الأخير: هل تشعر أنك فشلت لأنك لم تملك النتيجة؟ ومن قال لك إنك كنت تملكها؟ أنت سبب محدود، قد تؤمر أن تبذله كاملًا، لكن مفاتيح القلوب لم تكن في يدك ثم ضاعت منك؛ لم تكن لك أصلًا.

وحين تعود إلى حياتك

لن تنتظرك الحياة غدًا مرتبةً في صور منفصلة. لن يقف أمامك الناس وعلى كل واحد منهم بطاقة تقول: هذا قرب، وهذه قوة، وهذا أذى، وهذا حق، وهذا اختلاف. قد تجتمع المقامات في يوم واحد،

بل في إنسان واحد: قريب تحبه ويخطئ في حقك، وصاحب حق تحتاج أن تؤديه، وموظف تخاف أن تظلمه لأنك أقوى، ورجل خالفك ثم أحسن إليك، ومن أساء بالأمس ثم جاء اليوم معتذرًا.

لكن لا تحمل الميزان إلى الناس كأنهم قضايا تمشي. ارفع عينك إلى الإنسان نفسه. قد يثبت خطؤه ولا تعرف قلبه، وقد يظهر لك ضعف ولا تعرف قصته، وقد تسمع خبرًا ولا تعلم تمامه. **افهم ما استطعت، واحكم بما ثبت، ولا تدّع ما في القلب.** فالذي أمامك عبد لله له داخل لا تراه كله، كما أن لك داخلًا لا يراه الناس كله.

وحين تنظر إلى نفسك، لا تفترض أنك الطرف النقي في كل مشهد. قد تكون اليوم مظلومًا وغدًا ظالمًا، قويًا هنا وضعيفًا هناك، محقًا في أصل ومخطئًا في طريقة، مصلحًا في موقف ومحتاجًا إلى من يصلحك في موقف آخر. وقد يكون أشد ما يملكك من الناس ليس أذاهم، بل حاجتك إلى مدحهم وخوفك من ذمهم. في كل ذلك يبقى الامتحان واحدًا: أن لا ينتزع منك الناس عبوديتك لله، وأن لا تمنعك عبوديتك لله من أن تراهم ناسًا.

وقد تخرج من هذه الصفحات ثم تخطئ. تقول كلمة كان ينبغي أن تمسكها، أو تتأخر عن حق، أو تسيء الظن، أو تقسو على قريب، أو تدخل فيما لا يعنيك. ليس ميزان الكتاب عصمةً يحملها القارئ بعد آخر صفحة. إنما فائدته أن تعرف كيف تصحح المسار حين تنحرف، وأن لا تجعل خطأك الجديد حجةً لتترك الطريق كله.

وبعد الناس جميعًا، تبقى فقيرًا إلى الله:

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية

- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية

- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر

- سلسلة حقوق وفضائل

- سلسلة طبائع النفس